بلاغة السياق في خواتيم سورة النحل

إعداد
د. بلقيس بنت محمد الطيب إدريس
أستاذة البلاغة والنقد المساعدة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة طيبة

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل الكتاب تبيانًا لكل شيء، والصلاة والسلام على معلم الناس الخير، رسول الهدى، محمد بن عبد الله، صاحب الشريعة الغراء، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم على المحجة البيضاء.

أما بعد:

فالحديث عن القرآن العظيم، كتاب الله المجيد لا تملُّه النفوس، ولا يخلق على كثرة الرد، والعلماء والباحثون لا يزالون يجدون فيه جديدًا كلما أبحروا فيه، ولسان حالهم يقول: (كم ترك الأول للآخر).

وكنت ولا أزال أجد نفسي تدفعني لدراسة بلاغة الكتاب الكريم، وتلمس أسراره وعجائبه، وخواتيم سورة (النحل) من الآيات التي عكفت على درسها حينًا من الزمن، وكلما أمعنت النظر فيها وجدت فيها ما يغري بالدرس والبحث.

وتأتي أهمية هذه الدراسة من أهمية الآيات ذاتها، بالنظر إلى المناسبة التي جاءت فيها، والموقف الذي تنزلت من أجله. وهي من حيث موضوعها ترسم للمسلمين المنهج الأمثل في التعامل مع الناس عامة ومع أعدائهم بوجه خاص، في كل الأحوال والمواقف، إن في مواقف الدعوة والسلم أو الجهاد والحرب.

كما أنها من ناحية أخرى تمثل جانبًا من اختلاف المفسرين في بيان معاني الآيات وأسباب نزولها. وهنا يظهر أثر السياق على تنوع صوره في الترجيح

بين المعاني واستنباط الأهداف والمقاصد التشريعية للنص القرآني. فقد لاحظت من خلال قراءاتي في كتب التفسير المختلفة اعتناء المفسرين بجوانب سياقية في تفسيرهم بل ويتكئون على السياق بمختلف مجالاته في الترجيح بين المعاني، ويذكرونه في ضوابط الترجيح على نحو ما نجد عند ابن جزي الكلبي (ت: ٧٩٢ هـ) مثلاً(١). وهذه النظرات تدل على أن النظرية السياقية التي يروج لها اليوم على أنها من نتاج الدراسات الحديثة المعاصرة ليست وليدة اليوم، وليست فكراً غربياً بحتاً، بل لها جذور في التراث العربي الإسلامي، وعناصرها مبثوثة في مختلف الحقول المعرفية، في الدراسات الشرعية أو علوم العربية على تنوعها ، والأمر بحاجة إلى البحث والتنقير فيها، لوضع نظرية سياقية لها أصول عربية إسلامية تتلاءم مع المنجز الحضاري للشريعة الإسلامية.

وقد سعى عدد من الباحثين المعاصرين إلى التأصيل لهذه النظرية، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر: عبد الفتاح البركاوي في كتابه (دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث)، وتمام حسان في العديد من كتبه ومنها (اللغة العربية معناها ومبناها) و (الأصول)، وردة الله بن ردة الطلحي في (دلالة السياق)، وخلود العموش في (الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق)، وعيد بلبع في (السياق وتوجيه دلالة النص). كما أقامت الرابطة المحمدية للعلماء بالمغرب ندوة علمية دولية

---

(١) ينظر كتابه : التسهيل لعلوم التنزيل ١ / ٩

بعنوان (أهمية اعتبار السياق في المجالات التشريعية وصلته بسلامة العمل بالأحكام)(١)، وقد أماطت الأبحاث المقدمة فيها اللثام عن إسهامات العلماء المسلمين في مجال الدراسات السياقية.

وقد هدفت الدراسة إلى استجلاء أثر السياق في الترجيح للمعنى التفسيري في خواتيم سورة النحل، وفي اختيار المفردة والتركيب الملائمين للسياقات المختلفة في ضوء النظرية السياقية، وفي استنباط المقاصد التشريعية للقرآن الكريم.

أما التساؤلات التي طرحتها الدراسة فهي:

١. ما سبب اختلاف المفسرين في معاني الآيات ؟
٢. ما أنواع السياقات التي استند إليها المفسرون في تفسيرهم ؟
٣. هل للسياق أثر في اختيار المفردة القرآنية ؟
٤. هل للسياق أثر في اختيار البناء التركيبي للآيات ؟

واقتضت الإجابة عن هذه التساؤلات تقسيم خطة الدراسة إلى تمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة:

- التمهيد، في معنى السياق وأنواعه بإيجاز.
- المبحث الأول: أثر السياق في المعنى التفسيري للآيات.

المطلب الأول: دلالة السياق المقامي.

---

(١) عقدت هذه الندوة في الفترة ١٠ -١٢ من جمادى الثانية ١٤٢٨ هـ الموافق ٢٦ – ٢٨ من يونيو ٢٠٠٧ م، وجُمعت أبحاثها في كتاب مطبوع .

المطلب الثاني: دلالة سياق المقصد.

- المبحث الثاني: أثر السياق في اختيار المفردة القرآنية.

المطلب الأول: مفردة (العقاب).

المطلب الثاني: مفردة (مثل) .

المطلب الثالث: مفردة (الصبر) .

المطلب الرابع: مفردة (الحزن) .

المطلب الخامس: مفردة (الضيق)

- المبحث الثالث: أثر السياق في البناء التركيبي.

المطلب الأول: أسلوب الإنشاء.

المطلب الثاني: أسلوب التوكيد.

المطلب الثالث: أسلوب الشرط.

المطلب الرابع: أسلوب الحذف.

الخاتمة، وتشتمل على الخلاصة والنتائج.

وبعد: فأرجو أن أكون وُفقتُ فيما إليه هدفت، وإن كانت الأخرى فحسبي أني بذلت جهدي، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تمهيد

مفهوم السياق وأنواعه

مفهوم السياق وأهميته :

تدل مادة (**سياق**) في دلالتها اللغوية على معنى السَّوْق والتتابع، أخذاً من معانيها الحسية كسّوْق الإبل والمهر(١)، ولذا قال ابن فارس (ت: ٣٩٦هـ): " السين والواو والقاف أصل واحد وهو حَدْو الشيء"(٢).

وانتقلت تلك الدلالة الحسية إلى معنى مجازي أشار إليه الزمخشري (ت:٥٣٨هـ) حين قال: " وهو يسوق الحديث أحسن سياق، وإليك يساق الحديث، وهذا الكلام مساقة إلى كذا، وجئتك بالحديث على سَوْقه: على سرده "(٣).

ولقد كان السياق عند المتقدمين يُطلق على **ثلاثة معانٍ**:

١. الغرض، وهو مقصود المتكلم من إيراد الكلام.

٢. الظروف أو المواقف والأحداث التي ورد فيها النص أو نزل أو قيل بشأنها.

---

(١) ينظر مثلا : معجم مقاييس اللغة (سوق) ٤٧٦ ، والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (سوق) ٢٤٩

(٢) معجم مقاييس اللغة / ٤٧٦

(٣) أساس البلاغة (سوق) ٢٢٥

٣. ما يُعرَف بالسياق اللغوي، وهو ما يسبق أو يلحق الكلام موضع النظر والتحليل(١).

ومن الألفاظ الدالة على السياق لديهم (**الموقف والمقام**)، ويعنيان الموقف الخارجي أو الظروف المصاحبة لأداء المقال، وهو ما يُسمَّى اليوم بسياق الموقف أو السياق الخارجي(٢).كما استخدم البلاغيون مصطلح (**الحال**) في تعريفهم لبلاغة الكلام بأنها " مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته"(٣). ومن الألفاظ الدالة أيضًا: الموضع، والمساق، والاتساق، وسوق الكلام، ونظم الكلام، ومقتضى الحال، والتأليف (٤).

وقد أشار الإمام الشافعي (ت: ٢٠٤ هـ) إلى السياق اللغوي أو سياق النص حين قال: " وتبتدئ (أي العرب) الشيء من كلامها يبين أول لفظها فيه عن آخره، وتبتدئ الشيء يبين آخر لفظها منه عن أوله "(٥).

هذه الإشارات الموجزة تدل على معرفة القدماء للسياق وأنواعه وإن لم يعرفوه مصطلحًا محددًا.أما في الدراسات الحديثة فقلما نجد تعريفاً محدداً للسياق، وقد عرّفته بعض المعاجم الحديثة بأنه " بيئة الكلام ومحيطه

---

(١) ينظر : دلالة السياق لردة الله الطلحي / ٥٠ -٥١

(٢) ينظر : دلالة السياق لعبد الفتاح البركاوي / ٢٨

(٣) الإيضاح للخطيب القزويني ،تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ١ / ٤١

(٤) ينظر : السياق بين علماء الشريعة والمدارس اللغوية الحديثة لإبراهيم أصبان ضمن كتاب (أهمية اعتبار السياق في المجالات التشريعية) / ٣٣٠

(٥) دلالة السياق لردة الله الطلحي / ١٣٠ نقلاً عن : الرسالة للشافعي / ٥٢

وقرائنه" (١)، أو: " علاقة البناء الكلي للنص بأي جزء من أجزائه "(٢)، في حين صرح بعض الباحثين بأنه من المصطلحات العصية على التعريف، ومن ثم عرفه تعريفًا جزئيًا بأنه " مجموع ما يحيط بالنص من عناصر مقالية ومقامية توضح المراد وتبين المقصود "(٣) ،كما وصفه آخر بأنه " مصطلح متمرد، يأبى التحديد"، على أنه عرَّفه بأنه " مجموع الوقائع اللغوية، وغير اللغوية، المتصلة بالخطاب، أو المنفصلة عنه "(٤). واكتفى جلة الباحثين بتحديد السياق من خلال حديثهم عن أنواعه وخصائصه.

وقد لخَّص ابن القيم (ت: ٧٥١ هـ) أهمية السياق في قوله: " السياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة. وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته "(٥). وقد تحدث المعاصرون عن وظائف السياق بما لا يكاد يخرج عما ذكره ابن القيم(٦).

---

(١) الخطاب القرآني لخلود العموش / ٢٥ نقلا عن : معجم المصطلحات اللغوية لرمزي البعلبكي / ١١٩

(٢) السابق ، الصفحة نفسها نقلاً عن : معجم علم اللغة النظري / ٥٧

(٣) ينظر : السياق بين علماء الشريعة / ٣٣٢

(٤) المعنى بين اللفظ والقصد .. في الوظائف المنهجية للسياق لحميد الوافي ضمن كتاب (أهمية اعتبار السياق) / ٥٣٠

(٥) بدائع الفوائد ٢ / ٣٠١ نقلاً عن : السياق بين علماء الشريعة والمدارس اللغوية الحديثة / ٣٣٤

(٦) ينظر على سبيل المثال : السياق وفهم النص الشرعي : دراسة في الوظيفة والدلالة مولاي الحسين ألحيان ضمن كتاب (أهمية اعتبار السياق) ص ص ٥٣٩ ـ ٥٥٨

هذا والأصل في فهم النصوص والاستنباط منها هو الرجوع إلى الدلالات الوضعية للألفاظ، ولا يُعدُّ السياق معتبَرًا إلا عند تجاوز تلك الدلالات، يقول الباحث حميد الوافي في إعمال السياق: " وضابطه أنه لا يُحتاج إليه إلا عند استعمال اللفظ (المفرد والمركب) على خلاف ما وُضع له"(١).

أنواع السياق:

ثمة أنواع عدة للسياق، لكن أغلب الدراسات الحديثة تقسمه إلى قسمين كبيرين هما: السياق اللغوي، والسياق الخارجي، وتضيف دراسات أخر أنواعًا أخرى، كالسياق الثقافي، والتاريخي، والاجتماعي، والموضوعي، والعاطفي... إلخ(٢)، وإن كانت كلها لا تخرج ـ عند التحقيق ـ عن القسمين السابقين. وتركز الدراسة على الأنواع الآتية: السياق اللغوي، والخارجي، والثقافي، وسياق المقصد.

السياق اللغوي:

ويُسمَّى أيضًا بالسياق **المقالي**، وهو المستفاد من عناصر مقالية داخل النص(٣)، ويشتمل على العناصر اللغوية التي يحتويها النص، صوتية وصرفية ومعجمية ونحوية(٤). وهذا السياق " هو الذي يعطي الكلمة

---

(١) المعنى بين اللفظ والقصد / ٥٣٢

(٢) ينظر : السابق / ٣٤٣

(٣) ينظر : دلالة السياق للبركاوي / ٣٠

(٤) ينظر : السابق / ٥٠ ـ ٥١

أو العبارة معناها الخاص في الحديث أو النص، فهو يزيل اللبس عن الكلمة"(١).

ولعله أقدم أنواع السياق، وهو المتبادر إلى الذهن عند الإطلاق، بل إن من الباحثين من عرَّف السياق به فقال: " والسياق يُعرَف بأنه البيئة اللغوية المحيطة بالعنصر اللغوي المراد تحليله "(٢).

ولعلماء السلف إشارات متقدمة إلى هذا النوع من السياق، منها كلام الشافعي الآنف الذكر، ومنها ما ذكره الشاطبي (ت: ٧٩٠ هـ) من أن القرآن " أُنزل على لسان معهود العرب في ألفاظها، وأساليب معانيها، وأنها فيما فطرت عليه من لسانها تخاطب بالعام يراد به ظاهره، وبالعام يراد به العام في وجه والخاص في وجه، وبالعام يراد به الخاص، والظاهر يراد به غير الظاهر. وكل ذلك يُعرَف من أول الكلام أو وسطه أو آخره، وتتكلم بالكلام ينبئ أوله عن آخره، أو آخره عن أوله... إلخ " (٣).

ويميز بعض الباحثين بين نوعين من السياق اللغوي: أحدهما داخلي، والآخر عام. فالسياق اللغوي الداخلي محدود بحدود النص لا يتجاوزه (٤)، أما العام فلا يمكن وضعه ضمن الظروف والملابسات الخارجية ولا ضمن العناصر اللغوية المقالية داخل النص، وفي هذا السياق ينظر إلى النص

---

(١) الخطاب القرآني / ٢٦

(٢) دلالة السياق للطلحي / ٨

(٣) الموافقات ٢ / ٤٨

(٤) ينظر: السياق وتوجيه دلالة النص لعيد بلبع / ١٤١

بوصفه جزءا من النصوص المشتركة مع مراعاة نسب الاشتراك، فيشمل السياق العام النصوص التي تمثل المنظومة التي يندرج فيها النص(١) ، ويتجلى هذا السياق - بالنسبة لموضوع الدراسة - في نصوص القرآن والحديث والشعر.

لكن علاقة النص بسياقه العام ليست بالضرورة علاقة تبعية وانبثاق، بل قد تكون علاقة مخالفة ومناقضة(٢)، كما هو الحال بالنسبة للقرآن الكريم والحديث الشريف في علاقتهما مع الشعر العربي ؛ فتواؤم النص مع سياقه - ها هنا - يعني أن السياق يحمل مسوغات الفهم وإن كان لا يحمل مسوغات الموافقة، فالشعر العربي - مثلا - سياق للقرآن، غير أن الارتباط بينهما ارتباط مخالفة ، لِما اتَّسم به النموذج القرآني من خصائص المخالفة على مستوى الصياغة اللغوية والنظم، وعلى مستوى المفاهيم والمعتقدات(٣)، لكن الشعر في الوقت نفسه يعطينا مفاتيح لفهم النص القرآني وتفسيره وتأويله، وهو ما كان يفعله كبار المفسرين وعلى رأسهم حبر الأمَّة عبد الله بن عباس (ت: ٦٨ هـ) رضي الله عنهما وابن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ) رحمه الله.

وبهذا المفهوم نقول: إن السياق العام للقرآن الكريم في إطار التوافق يشمل مصادر التشريع الإسلامي من قرآن وسنة، كما يدخل فيه محاولات

---

(١) ينظر : السابق / ١٧١

(٢)ينظر : السابق / ١٦٨

(٣) ينظر : السابق ، الصفحة نفسها

التفسير والتأويل للقرآن الكريم لدى المفسرين وغيرهم ممن تناول النص القرآني بالفهم والتفسير.

أما في إطار المخالفة فيظل الشعر العربي سياقًا للقرآن في مجال الفهم والتفسير والتأويل، والله أعلم.

السياق الخارجي:

ويسمى أيضًا بالسياق **الحالي**، أو **المقامي**، أو **سياق الموقف**(١). وهو المتعلق بالعناصر غير اللغوية المصاحبة للنص(٢)، وبعبارة أخرى: يُعنى بالموقف الخارجي أو الظروف المصاحبة لأداء المقال(٣)، ويتناول ـ بصفة عامة ـ المعطيات الاجتماعية، والثقافية، والشخوص (المخاطِب والمخاطَب)، والهدف، والزمان، والمكان، وما إلى ذلك(٤). ويدخل فيه أسباب النزول للآيات القرآنية أو الورود للحديث الشريف، والتي تُسمَّى عند بعض الدارسين بالسياق **التاريخي**.

ومن إشارات القدماء إلى هذا السياق ما ذكره الشاطبي من أن السبيل إلى فهم النص واستنباط دلالته هو الرجوع إلى الدلالة الوضعية أو المعنى الوضعي للألفاظ(٥)، ثم الانتقال منها إلى الدلالة السياقية سواء أكانت

---

(١) ينظر: دلالة السياق للبركاوي / ٢٨، ودلالة السياق للطلحي / ٥٢

(٢) ينظر: دلالة السياق للبركاوي / ٣٠

(٣) ينظر: السابق / ٢٨

(٤) ينظر: الخطاب القرآني / ٤٠

(٥) ينظر: الموافقات ٣ / ٢٦٧

لغوية بردِّ أول الكلام على آخره، وآخره على أوله أم **خارجية** تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل، ومنها أسباب النزول(١)، وقد فصَّل الأحوال بأنها " حال الخطاب، من جهة نفس الخطاب، أو المخاطِب، أو المخاطَب، أو الجميع ؛ إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين، وبحسب مخاطبين، وبحسب غير ذلك..."(٢). كما بين أن علم المعاني والبيان يفيد في معرفة مقاصد الكلام، ومداره على معرفة مقتضيات الأحوال(٣).

أما البلاغيون فقد تحدثوا عن الحال وذكروا أن " المراد بالحال الأمر الداعي إلى التكلم على وجه مخصوص، أي: إلى أن يُعتبر مع الكلام الذي يؤدَّى به أصل المعنى خصوصية ما، وهو مقتضى الحال، مثلا كون المخاطب منكرًا للحكم حال يقتضي تأكيده، والتأكيد مقتضاها... "(٤). ولهذا ترى الدراسة تسمية هذا النوع بالسياق الحالي أو المقامي ؛ فهو الأنسب للدرس البلاغي.

ويعنينا في هذه الدراسة من السياق المقامي أسباب النزول خاصة، فلقد تميَّز القرآن الكريم بنزوله منجَّمًا على حسب الأحداث والوقائع، ومعرفة أسباب النزول تعين على فهم النص واستخراج دلالته، قال ابن تيمية

---

(١) ينظر : السابق ، الصفحة نفسها

(٢) السابق ٣ / ٢١٥

(٣) ينظر : السابق ، الصفحة نفسها

(٤) المطول للتفتازاني / ٢٥

(ت:٧٢٨ هـ): " ومعرفة سبب النزول تعين على فهم الآية ؛ فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبَّب "⁽١⁾.

ولهذا السياق " دوره الخاص في الكشف عن طبيعة تفاعل النص مع الظرف الذي نزل فيه وبسببه، ويكشف عن تفاعل النص مع المخاطبين بشكل خاص، كما أنه لا يمكن تبيُّن دقائق النص ومراميه بمعزل عن هذا السياق المقامي، ولهذا وقعه الخاص في المعالجة التربوية المتدرجة المنوطة بأسبابها للمتربِّين "⁽٢⁾.

ويميز بعض الباحثين بين نوعين من المقام: أحدهما خاص، وهو " القرائن والأحوال والظروف التي تحفُّ بصدور خطاب ما "⁽٣⁾، والآخر عام، " وهو الحالة العامة أو الهدف العام الذي اقتضى مجيء الخطاب، ككون القرآن الكريم نزل لهداية الناس وإرشادهم إلى طريق الحق "⁽٤⁾. وهذا المقام هو الغالب على نصوص الشريعة الإسلامية، ومنه نشأت القاعدة الأصولية " العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب "⁽٥⁾.

---

(١) أصول التفسير / ٣١

(٢) الخطاب القرآني / ٨٥ وما بعدها

(٣) مقاصد الشريعة الإسلامية تأصيلاً وتفعيلاً لمحمد بكر حبيب / ١٧٣

(٤) السابق / ١٧٣ وما بعدها

(٥) ينظر : المرجع السابق / ١٧٤

السياق الثقافي:

أو سياق الثقافة، وعرفه الطلحي بأنه: " ذلك السياق الذي تنضوي تحته السياقات الأخرى لغوية أو غير لغوية "(١).

وهذا السياق يضم الخلفيات المعرفية والثقافية من معتقدات دينية وأسطورية، وما يتعلق بالعادات والتقاليد التي لا ترتبط بمجتمعات بعينها.. والموروثات الحضارية الخاصة ببعض البيئات دون بعضها الآخر، وما إلى ذلك من ملابسات لا حصر لها. والسياق الثقافي بهذه الخلفيات والموروثات يسهم في تشكيل عقل الإنسان، ويرفده في عمليتي إنتاج الظاهرة اللغوية وتأويلها(٢).

لكن القول بالسياق الثقافي بهذا المفهوم في القرآن الكريم والحديث الشريف له خطورته ؛ إذ لا يمكن أن يسهم في إنتاج النص القرآني، لأنه كلام الله تعالى ووحيه، ولا الحديث الشريف لأن قائله لا ينطق عن الهوى، بل هو وحي أوحي إليه ﷺ، غير أن هذا السياق له دور في التفسير والتأويل، وكما سبقت الإشارة فإن علاقة النص القرآني أو الحديثي بالسياق الثقافي علاقة موافقة ومخالفة في الوقت نفسه.

---

(١) دلالة السياق / ٥٣

(٢) ينظر : السياق وتوجيه دلالة النص / ١٦٧

ولعل السياق الثقافي بهذا المفهوم هو ما يسمَّى بـ (الموسوعة) في الدراسات الغربية الحديثة(١)، وهي " تلك المعارف الجماعية التي تسري بين أفراد مجتمع أو جماعة ما، والتي ليس من الضروري، ولا هو من الممكن أن يتحكم فيها فرد واحد، مهما اتسعت معرفته، بل هي من سمات المجموعة أو الجماعة باعتبارها كذلك. إنها المعرفة الجماعية والمشتركة والموزعة بين أفراد مجتمع ما أو جماعة ما، والتي يمتلكها المجتمع في كليته ولا يحيط بها فرد واحد من أفرادها في كليتها "(٢).

ومفهوم (معهود العرب) أو (معهود الأميين) الذي ذكره الشاطبي يتفق ومعنى السياق الثقافي بالتعبير المعاصر، وهو " يقترب اقترابًا شديدًا من مفهوم الموسوعة "(٣) الآنف الذكر. ويرى الشاطبي أنه " لابد في فهم الشريعة من اتباع معهود العرب الأميين ـ وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم ـ فإن كان للعرب في لسانهم عُرف مستمر، فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة، وإن لم يكن ثَمَّ عُرف فلا يصح أن يجري في فهمها على ما لا تعرفه. وهذا جارٍ في المعاني والألفاظ والأساليب "(٤). وواضح من كلام الشاطبي أنه يقصر دور هذا السياق على (فهم الشريعة)، أي: تأويل

---

(١) مفهوم (الموسوعة) أسسه الناقد السيميائي إمبرتو إيكو . (ينظر : القراءة السياقية عند الأصوليين ليحيى رمضان ضمن كتاب (أهمية اعتبار السياق) / ٢٧٦)

(٢) السابق / ٢٧٧

(٣) السابق/ ٢٧٦

(٤) الموافقات ٢ / ٥٩

النص وتفسيره، لا إنتاجه، لأنه كلام الخالق ﷻ. وهذا المفهوم - كما يقول الباحث يحيى رمضان - " تجسيد لثقافة المجتمع في جدلها مع اللسان المحض (أي اللسان العربي)، أو ثقافة المجتمع التي أنتج فيها الخطاب في سياق علمي ومعرفي وتاريخي معين "(١).

ولاتساع هذا المفهوم (معهود العرب) فقد ضبطه الشاطبي بأنهم العرب الأميون الذين كانوا وقت نزول الوحي ؛ " لأن العرب بوصفهم جماعة لَسَنية قد تختلف موسوعتهم المعرفية، أي " معهودهم " باختلاف الزمان والمكان وتفاعل الإنسان معهما... إن المعهود الذي ينبغي أن يُشغل لتفسير القرآن الكريم وتأويله ليس " المشترك " بين الجماعة اللسنية المتصفة بكونها عربية في كل زمان ومكان، وإنما معهود الأميين فحسب، أي ذلك " المشترك " الذي تقتسمه الجماعة التي حضرت نزول الوحي، وحازت دلالات الألفاظ التي نزل بها وعرفت استعمالاتها المختلفة التي كانت لها عند العرب "(٢).

وتتجلى أهمية هذا السياق أو المفهوم في " مراقبة التأويل ورسم حدوده الممكنة بوصفه الشرط الضروري لقيام انسجام النص باعتباره المعيار الوحيد الممكن لاختبار الإمكانات التأويلية "(٣).

---

(١) القراءة السياقية / ٢٧٣

(٢) السابق / ٢٧٥

(٣) السابق / ٢٨١

سياق المقصد:

ويسمَّى عند بعض الباحثين بالسياق المقاصدي أو المآلي(١). وقد ألمح تعريف المتقدمين للسياق بأنه غرض المتكلم أو مقصوده من كلامه(٢) إلى ارتباط السياق بالمقصد، فإذا كان الكلام رسالة من مرسِل إلى مستقبِل فلا بد أن تحمل هذه الرسالة غرضًا يقصده المتكلم وإلا كانت عبثًا أو لغوًا.

وقد اعتنى القدماء بهذا السياق في دراستهم نصوص الشريعة خاصة في الكتاب والسنَّة ؛ لأن البشر متعبَّدون بها، وفهم هذه النصوص ومعرفة مقاصدها ومراميها هو الخطوة الأولى من أجل العمل بها. ولذا استفرغ العلماء جهدهم في بحثها ونتج عن ذلك ما يسمَّى بعلم المقاصد عند علماء الأصول. ولمعرفة مقاصد الشريعة أهمية في نشر الدعوة الإسلامية وعرضها للناس ؛ إذ إن معرفتهم بها يعين على الاقتناع بهذا الدين، ويرغِّبهم فيه، ويشوِّقهم للقيام بتكاليفه وتطبيق أحكامه، لأن النفس البشرية تحب ما ينفعها، وترغب في تأمين مصالحها، وقد جاء الإسلام لرعاية مصالح العباد في الدنيا والآخرة(٣).

وهنا تتبدى أهمية سياق المقصد في تيسير الوصول إلى مقاصد الشارع وإدراكها، ومن ثم العمل بها وتطبيقها. ولكون هذا السياق متصلاً

---

(١) ينظر مثلاً : خطة السياق ومحاولة تطبيقها على النص الحديثي لمحمد خروبات ضمن كتاب (أهمية اعتبار السياق) / ٤٨٣

(٢) ينظر : ص ٥ من البحث

(٣) ينظر : مقاصد الشريعة / ٩٩

بالأحكام الشرعية فإن مجال دراسته ـ في الغالب ـ في النص القرآني والحديثي، ويتجلى إعجاز القرآن البلاغي ـ هاهنا ـ حين تُصاغ الأحكام في لغة عالية لا يسمو إليها بيان البشر عامة، وفي صياغة الأحكام والقوانين خاصة، والتي تُصاغ عادة في لغة تقريرية جافة أبعد ما تكون عن لغة الأدب المثيرة للحسِّ والوجدان.

المبحث الأول

أثر السياق في المعنى التفسيري للآيات

المطلب الأول

دلالة السياق المقامي

قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ (١٢٦) وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨)﴾ النحل: ١٢٦ - ١٢٨ اتخذ كثير من المفسرين السياق المقامي ركيزة في تفسير آيات (النحل) هذه، فأشاروا إلى سبب نزولها وبنوا المعنى عليه، ثم اختلفوا في سبب النزول، فقال بعض الرواة: إنها نزلت في أعقاب غزوة (أُحُد)[1]، وقال آخرون: إنها نزلت في فتح مكة[2]، وقول ثالث بأنها نزلت في مكة وقت الأمر بمهادنة قريش، أي: صلح (الحديبية)[3]، وجمع بعضهم بين الروايات فقال: إنَّ الآيات " نزلت أوَّلاً بمكة، ثم ثانيًا بـ (أُحُد)، ثم ثالثًا يوم الفتح تذكيرًا من الله لعباده "[4].

وقد ذكر القرطبي (ت: ٦٧١ هـ) إجماع المفسرين على أن الآيات نزلت بعد (أُحُد) فقال: " أطبق جمهور أهل التفسير أنَّ هذه الآية مدنية، نزلت في

---

[1] ينظر مثلاً: معاني القرآن للفراء ٢ / ١١٥ ، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣ / ٢٢٣ ، وتفسير البغوي ٣ / ٩٠ ، والكشاف للزمخشري ٢ / ٤٣٥ ، والبحر المحيط لأبي حيان ٥ / ٥٤٩ ، والتسهيل لابن جُزَي ١ / ٣ ، وروح المعاني للألوسي ١٤ / ٢٥٧

[2] ينظر مثلاً: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (دار الأندلس) ٤ / ٢٣٦ وما بعدها

[3] ينظر: التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ١٤ / ٣٢٦

[4] لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي / ١٣٥

شأن التمثيل بحمزة في يوم (أُحُد)، ووقع ذلك في صحيح البخاري وفي كتاب السِّيَر. وذهب النحَّاس (ت: ٣٣٨ هـ) إلى أنها مكية... ولكن ما روى الجمهور أثبت "(١). فالراجح أن الآيات نزلت بعد غزوة (أُحُد)، وكانت من الوقائع المشهودة التي حدث فيها ابتلاء الله ﷿ للمسلمين، حيث خالف الرُّماة أوامر القائد الرسول ﷺ فكانت الهزيمة التي أودتْ بحياة سبعين شهيدًا منهم حمزة بن عبد المطلب عمُّ الرسولﷺ، وقد مثَّل المشركون بجُثث الشهداء كما تروي الروايات، وتوعَّد المسلمون بأن يصنعوا مثل صنيعهم إنْ أظفرهم الله بهم يومًا ما، غير أنَّ الله ﷿ أنزل خواتيم سورة النحل تنهاهم عن ذلك الصنيع، فكفُّوا امتثالاً لأمره.

ومما يسترعي النظر في الآيات الكريمات أنها تتلاءم مع الحدث الذي نزلت فيه، فالمقام مقام تهدئة للنفوس الغاضبة، والجو العام للآيات يوحي بالاطمئنان وإثارة السكينة في النفوس المتعطشة للانتقام، فالمهزوم يريد أن يدرك ثأره، ونشوة النصر تدفع المنتصر إلى الأخذ بالثأر دون هوادة، لكن الله ﷿ يريد لعباده المؤمنين أمرًا آخر، فليست الحرب طلبًا لثأرٍ أو انتقام، بل لإعلاء كلمة الله تعالى وإقامة منهجه في الأرض، فيجب على المسلمين أن يقدموا النموذج الأسنى والأرفع للحرب الشريفة، ويجب أن تختلف شريعتهم في الحرب عن شريعة أعدائهم، وإلاَّ فما الفرق بين هؤلاء وأولئك؟ فمع أنَّ المسلمين موتورون مما فُعِل بهم يوم (أُحُد)، غير أن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٢٠١

الآيات جاءت بأسلوبٍ رفيق تنهاهم عن المُثْلة، وتحفزهم على الصبر والكفِّ وترك المعاقبة، فكانت بلسمًا تدرَّج في طمأنة القلوب الثائرة: (فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) (إنَّ الله مع الذين اتقوا ـ الآية).

المطلب الثاني

دلالة سياق المقصد

لَمَّا كان القرآن الكريم كتاب هداية وتشريع في المقام الأول فقد نظر العلماء إلى مقاصد الشريعة في أحكامها، والتفتوا إلى معاني الآيات والسُّوَر في ضوء هذه المقاصد انطلاقًا من عموم التشريع الإسلامي وشموله.

ولهذا فسَّر بعض العلماء آيات (النحل) هذه في إطار المقاصد الكلية العامة بغض النظر عن خصوصية التنزُّل، وعلى رأس هؤلاء الطبري (ت: ٣١٠ هـ) الذي قال: " والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله ـ تعالى ذكره ـ أمر من عوقب من المؤمنين بعقوبة أن يعاقِب من عاقبه بمثل الذي عوقب به، إن اختار عقوبته، وأعلمه أن الصبر على ترك عقوبته على ما كان منه إليه خير، وعزم على نبيِّه ﷺ أن يصبر "(١)، ثم قال معلِّلاً لهذا الرأي: "... وذلك أن ذلك هو ظاهر التنزيل، والتأويلات التي ذكرناها عمَّن ذكروها عنه محتملتها الآية كلها. فإذا كان ذلك كذلك، ولم يكن في الآية دلالة على أيِّ ذلك عَنَى بها من خبرٍ ولا عقل كان من الواجب علينا الحكم بها إلى ناطقٍ لا دلالة عليه(٢)، وأن يقال: هي آية محكمة أمر الله ـ تعالى

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٤ / ٢٢٩

(٢) كذا (؟) ، وقد قال محقق الكتاب : " لعل أصل العبارة : كان الواجب علينا تعميم الحكم بها ، لا تأويلها إلى خاص لا دلالة عليه ... إلخ " ، وهو ما أميل إليه . (المصدر السابق ، الصفحة نفسها ، هامش (١))

ذكره ـ عباده أن لا يتجاوزوا فيما وجب لهم قِبَل غيرهم من حقٍّ من مال أو نفس الحقَّ الذي جعله الله لهم إلى غيره "(١).

وهذا النص يشير إلى أمور أهمها:

- تفطُّن الطبري إلى سياق المقصد، وعنايته بغرض الآية ومدى اتفاقها مع مقاصد الشرع المطهَّر، فقد بيَّن الحكم الشرعي في الآية وهو عدم تجاوز صاحب الحق حقَّه من ظالِمِه أيًّا كان هذا الحقُّ من مالٍ أو نفس.
- أن المعتمد في التفسير هو (ظاهر التنزيل)، ولا يُعدَل عنه إلا لدليلٍ من نقلٍ أو عقل، فإن لم يكن فالتمسُّك بالظاهر وحمل النص على عمومه أولى.
- إذا كان النص يحتمل تأويلاتٍ عدَّة، وكلها لها وجهٌ صحيح، فلا مانع من حمل المعنى عليها، فالقرآن ـ كما قيل ـ " حمَّال أوجه ".

وثمة جانب آخر من سياق المقصد ذكره بعض المفسرين كالفخر الرازي (ت: ٦٠٦ هـ) الذي نظر إلى الآيات في سياقها المقطعي، فقد سُبِقت بالحديث عن الدعوة ووسائلها (ادع إلى سبيل ربِّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) [النحل: ١٢٥]، فهناك الحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالحسنى، فإذا ما اقتضى الأمر اللجوء إلى الشِّدَّة فهناك آداب ينبغي مراعاتها هي ما ذكرته الآيات موضع الدراسة، فالسياق

---

(١) السابق ، الصفحة نفسها

ـ إذًا ـ يرسم إطارًا عامًّا لمنهج الدعوة إلى الله ووسائلها دون نظر إلى خصوص السبب، قال الرازي: " الأصوب عندي أن يقال: المراد أنه تعالى أمر محمدًا ﷺ أن يدعو الخلق إلى الدين الحقِّ بأحد الطرق الثلاثة وهي: الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالطرق الأحسن، ثم إن تلك الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم وأسلافهم، وبالإعراض عنه والحكم عليه بالكفر والضلالة، وذلك مما يشوِّش القلوب ويوحش الصدور، ويحمل أكثر المستمعين على قصد ذلك الداعي بالقتل تارة، وبالضرب ثانيًا، وبالشتم ثالثًا، ثم إن ذلك المُحِقَّ إذا شاهد تلك السَّفاهات، وسمع تلك المشاغبات لا بد وأن يحمله طبعه على تأديب أولئك السفهاء، تارة بالقتل وتارة بالضرب ؛ فعند هذا أمر المُحِقِّين في هذا المقام برعاية العدل والإنصاف وترك الزيادة، فهذا هو الوجه الصحيح الذي يجب حمل الآية عليه "(١). ومن أنصار هذا الرأي أيضًا البيضاوي (ت: ٦٨٥ هـ)(٢)، وشيخ زاده (ت: ٩٥١ هـ)(٣)، وأبو السعود (ت:٩٨٢هـ)(٤)، وابن عاشور(٥)، وسيد قطب(٦)، وابن سعدي(٧) وغيرهم.

---

(١) التفسير الكبير ٢٠ / ١٤٣

(٢) ينظر : تفسير البيضاوي على حاشية الشهاب الخفاجي ٥ / ٣٨٢

(٣) ينظر : حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي ٣ / ٢٠٧

(٤) ينظر : تفسير أبي السعود ٣ / ٣٠٤ وما بعدها

(٥) ينظر : التحرير والتنوير ١٤ / ٣٢٦

(٦) ينظر : في ظلال القرآن ٤ / ٢٣٠١ وما بعدها

(٧) ينظر : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان / ٤٥٢

وعندما جعل الرازي سياق المقصد وكْدَه الأول استند إلى السياق اللغوي للترجيح لما يراه، ونظر إلى السياق المقطعي ومدى تناسب الآيات مع ما قبلها، فقال معترضًا على من أخذ بالسياق المقامي (سبب النزول): " إنَّ حمْل هذه الآية على قصة لا تعلُّق لها بما قبلها يوجب حصول سوء الترتيب في كلام الله تعالى، وذلك يطرق الطعن إليه، وهو في غاية البعد"⁽¹⁾، وأما فيما يتعلق بسبب النزول فذكر أنَّ " تلك الواقعة داخلة في عموم هذه الآية، فيمكن التمسك في تلك الواقعة بعموم هذه الآية، إنما الذي ينَازَع فيه أنه لا يجوز قصر هذه الآية على هذه الواقعة ؛ لأن ذلك يوجب سوء الترتيب في كلام الله تعالى "⁽²⁾. وهو ما ذهب إليه ابن عاشور أيضًا حين قال: " فهذه الآية متصلة بما قبلها أتم اتصال، وحسبك وجود العاطف فيها، وهذا تدرُّج في رُتَب المعاملة من معاملة الذين يُدعَون ويُوعَظون إلى معاملة الذين يُجادَلون ثم إلى معاملة الذين يُجازَون على أفعالهم. وبذلك حصل حسن الترتيب في أسلوب الكلام"⁽³⁾. وهو أيضًا يحتكم إلى السياق اللغوي في الترجيح، إذ يرى عطف الآية على ما قبلها، فثمة تناسب واتصال بين أجزاء السياق.

لكن الشهاب الخفاجي (ت: ١٠٦٩ هـ) ردَّ هذا القول مستعينًا بالسياق المقامي ومرجِّحًا رأيَ الجمهور، قال: " كون هذه الآية مدنية... وكون

---

(١) التفسير الكبير ٢٠ / ١٤٢

(٢) السابق ٢٠ / ١٤٣

(٣) التحرير والتنوير ١٤ / ٣٠٦

سبب نزولها قصة حمزة ﷺ مصرَّحٌ به في كتب الحديث والتفسير، ومرويٌّ عن جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم... فلا وجه لِما ذكره الإمام (أي الفخر الرازي)، وأما ما ذكره من سوء الترتيب وعدم الارتباط فليس بشيء، فإنَّ ذكر هذه القصة للتنبيه على أنَّ الدعوة لا تخلو من مثله، وأنَّ المجادلة تجرُّ إلى المجادلة⁽¹⁾ ،فإذا وقعَتْ فاللائق ما ذُكر، فلا فرق بينه وبين الوجه الأول بحسب المآل، وخصوص السبب لا ينافي عموم المعنى، وتفسيره بما مرَّ "⁽²⁾.وهو ما أيَّده ـ أيضًا ـ الألوسي (ت: ١٢٧٠ هـ) الذي قال: " فالمعوَّل عليه عدم العدول عما قاله الجمهور "⁽³⁾.

ولا يخفى أنَّ سياق المقصد معتَبرٌ في هذه الآية مع القول بسبب نزولها، ذلك أنَّ الكتاب الحكيم كان ينزل منجَّمًا حسب الأحداث والوقائع، وتأتي الأحكام والتشريعات في وقتها ليكون أدعى لقبولها ورسوخها.

ونلحظ ـ ها هنا ـ جانبًا من الإعجاز القرآني في رسم منهج السلوك وفنِّ التعامل، فالقرآن نزل من لدن حكيم خبير بنفسيات المخاطبين وأحوالهم ؛ ولذا جاء التدرُّج في بيان كيفية تعامل المسلمين مع أعدائهم ومخالفيهم، فالآيات دعتْ أوَّلاً إلى المعاملة بالمثل (وإنْ عاقبتم فعاقِبوا بمثل ما عوقبتم

---

(١) في تفسير الألوسي (المجالدة) ، ولعلها أنسب للمعنى ، وإن كانت (المجادلة) أيضًا صحيحة ؛ لكونها من الجَدَالة وهي الأرض . ينظر : روح المعاني ١٤ / ٢٥٧ ، ومعجم المقاييس (جدل) / ١٨٩

(٢) حاشية الشهاب ٥ / ٣٨٢ وما بعدها

(٣) روح المعاني ١٤ / ٢٥٨

به)، فالنفس البشرية لا يمكن أنْ ترضى بالإساءة أو تسكت عنها، فنزولاً على ذلك جاء الأمر بالمعاملة بالمثل، إذ أباح الله ﷻ للمسلمين أن يأخذوا بحقهم ويعاقبوا أعداءهم بمثل ما فعلوا بهم ولا يزيدون على ذلك كمًّا وكيفًا، ولو كان في مقدورهم أن يحققوا هذه المثلية في العدد والكمِّ فإنهم بالتأكيد لن يستطيعوا تحقيقها في الطريقة والكيف، مما يجعلهم خارجين عن حدود الله تعالى، لهذا وجَّههم القرآن الكريم إلى ما يليق بهم وهو الصبر (ولئن صبرتم لهو خيرٌ للصابرين). فالصبر والكفُّ - إذًا - هو الخطوة التالية في تعامل المسلمين مع أعدائهم، وهي مرحلة يتوصل إليها الإنسان بمقاومة أهواء نفسه وشهواتها طلبًا لِما عند الله جلَّ وعلا، وهذه مرتبة (الإحسان) التي هي أسمى ما يصل إليه الإنسان. ونلحظ - هاهنا - أنَّ البيان القرآني لم يستخدم أسلوب الأمر كما في الخطوة السابقة (فعاقبوا)، بل قال: (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين)، فجاء به على طريق الترغيب والحث لا الإلزام والقطع، قال ابن عاشور مبيِّنًا الحكمة من ذلك: " ورغَّبَهم في الصبر على الأذى، أي بالإعراض عن أذى المشركين وبالعفو عنه ؛ لأنه أجلب لقلوب الأعداء، فوُصِف بأنه خير، أي خير من الأخذ بالعقوبة "(١).

وهذا التدرُّج في رسم منهج السلوك جاء على أربع مراتب ترقِّيًا من الأدنى إلى الأعلى:

---

(١) التحرير والتنوير ١٤ / ٣٣٦

١. التعريض، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾، فمهَّد إلى أن الأولى ترك العقاب، وستأتي دلالة الأسلوب الشرطي على ذلك.

٢. التصريح، في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾.

٣. الأمر بالصبر، في قوله ﷻ: (واصبر) بجعله عزيمة في حق الرسول ﷺ، ويدخل فيه المؤمنون تبَعًا.

٤. التهديد ،في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ ببيان الوعيد حيث كان الانتقام، قال الفخر الرازي: " وهذا يجري مجرى التهديد ؛ لأنَّ في المرتبة الأولى رغَّب في ترك الانتقام على سبيل الرمز، وفي المرتبة الثانية عدل عن الرمز إلى التصريح...، وفي المرتبة الثالثة أمرنا بالصبر على سبيل الجزم، وفي هذه المرتبة الرابعة كأنه ذكر الوعيد في فعل الانتقام فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ عن استيفاء الزيادة (والذين هم محسنون) في ترك الانتقام، فإن أردْتَ أن أكون معك فكنْ من المتقين ومن المحسنين "(١).

وفي هذه المراتب نجد البيان القرآني يفرض احتمالين في تعامل المسلمين مع أعدائهم ومخالفيهم هما: الأول: العقوبة بالمثل، والثاني: الصبر.

ثم رجحت الآيات كفة الفرض الثاني (**الصبر**) بعدة مرجحات:

- الإشارة إلى خيريَّة ذلك الفرض (لهو خير للصابرين).

---

(١) التفسير الكبير ٢٠ / ١٤٣ وما بعدها

- الأمر به (واصبر)، ولا يأتي الأمر من الله ﷻ إلاَّ بكل ما هو خير للمخلوق.
- الإرشاد إلى طلب المعونة على الصبر من الله ﷻ: ﴿وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.
- إظهار نتائج الصبر في مقام الحذف والإضمار أوَّلاً، ثم في التصريح بهذه النتائج ثانيًا في قوله: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾.
- معيَّة الله ﷻ للصابرين المحسنين، ومن كان الله معه فلا شيء فوق ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾.

وبذلك تترجح كفة الصبر الذي هو الأليق بمقام النبوة والرسالة، والأجدر بمنزلة المحسنين المتقين. وهذا المنهج في الأمر بالصبر وجعله عزيمةً في حق الرسول ﷺ ؛ لأنَّ الأنبياء والرسل هم صفوة الخلق والقدوة المثلى لأتباعهم، قال أبو حيَّان (ت: ٧٥٤ هـ): " ولمَّا خُيِّرَ المخاطبون في المعاقبة والصبر عنها عُزِم على الرسول ﷺ في الذي خيرٌ وهو الصبر، فأُمِرَ هو وحده بالصبر "⁽¹⁾، وخُصَّ بذلك " للإشارة إلى أنَّ مقامه أعلى، فهو بالتزام الصبر أولى أخذًا بالعزيمة بعد أن رخَّص الله لهم في المعاقبة "⁽²⁾.

ومما يدل على منزلة الرسول ﷺ الكريمة عند ربه تعالى اختلاف أسلوب الخطاب في هذا السياق، ففي مجال الحديث العام عن العقوبة والصبر يواجه

---

(١) البحر المحيط ٥ / ٥٥٠

(٢) التحرير والتنوير ١٤ / ٣٣٦

المؤمنين بالخطاب (عاقبتم، فعاقبوا، عوقبتم، صبرتم)، أما عند الحديث عن النبي الكريم ﷺ فإن القرآن يضعه في المقام الذي ينبغي ويليق بصفوة الخلق من الرسل والأنبياء، مقام الصبر والنهي عن آثاره من الحزن والقلق والضيق، وكل ما من شأنه أن يكدر عليه صفوه (واصبر، وما صبرك إلا بالله، ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون)، ومعية الله تعالى لرسوله ﷺ ظاهرة في هذه الجملة (وما صبرك إلا بالله)، مما يدل على المقام السامي الذي رفع الله تعالى إليه أنبياءه ورسله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

المبحث الثاني

أثر السياق في اختيار المفردة القرآنية

المطلب الأول

مفردة (العقاب)

تشير المعاجم اللغوية إلى أن لفظ (**العقاب**) خاص بالعذاب⁽¹⁾، كما تذكر أن اشتقاقه من (العقب) وهو (التلوّ)⁽²⁾، ولذا قال أبو هلال العسكري (ت: ٣٩٦ هـ تقريبًا): " العقاب ينبئ عن استحقاق، وسُمِّي بذلك لأن الفاعل يستحقه عقيب فعله "⁽³⁾.

وقد فرَّق الشهاب الخفاجي بين الدلالة اللغوية وبين الاستخدام العرفي للفظ، فهو في اللغة " مجازاة على عذاب سابق، لأنها ما يقع عقيب مثله"، أما في العُرف فهو " مطلق العذاب ولو ابتداء "⁽⁴⁾.

ومن هذا المنطلق اتفق المفسرون على أن قوله تعالى: { عاقبتم } يعني المجازاة على الذنب، أما قوله تعالى: { عوقبتم } فذكروا أنه خارج عن الأصل اللغوي، ومن ثم اختلفوا في إطلاقاتهم عليه، فقالوا إنه: ازدواج، ومزاوجة، ومشاكلة، ومجاز مرسل، واستعارة..

---

(١) ينظر ـ مثلا ـ : المفردات / ٣٤٠ ، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي ٣ / ١٢٤ ، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزأبادي ٤ / ٨٢ مادة (عقب)

(٢) ينظر : الفروق / ٢٦٤ ، والقاموس المحيط / ١٤٩

(٣) الفروق / ٢٦٤

(٤) حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي ٥ / ٣٨٢

أما الازدواج فقد ذكره كل من الزجَّاج (ت: ٣١١ هـ) والخطيب الإسكافي (ت: ٤٢٠ هـ)(١)، وقد علل الزجَّاج لذلك " لأن الجنسين في الفعل معنى واحد "(٢)، وأما المزاوجة فذكرها الزمخشري(٣)، على أنه في موضع آخر سمى مثل ذلك بالمشاكلة(٤)، والمزاوجة تسمية أبي الحسن الرماني (ت: ٣٨٦ هـ) الذي ذكر أن تجانس االمزاوجة يقع في الجزاء(٥)، وقد رفض الشهاب الخفاجي إطلاق المزاوجة على ما في الآية الكريمة محتجًّا بأنها على خلاف ما اصطلح عليه في علم البديع(٦).

وأشار ابن عطية الأندلسي (ت: ٥٤٦ هـ) إلى تناسب اللفظين وأن في الأول منهما مجازًا(٧)، وتابعه القرطبي وأبو حيان (ت: ٧٤٥ هـ) على ذلك(٨)، كما ذكر أبو حيان أن في اللفظ مقابلة، وكأنه نظر إلى المعنى اللغوي فقال: " وسمى المجازاة على الذنب معاقبة لأجل المقابلة، والمعنى: قابلوا من صنع

---

(١) ينظر : معاني القرآن وإعرابه ٣ / ٢٢٣ ، والمجالس / ٦٨

(٢) معاني القرآن ٣ / ٢٢٣

(٣) ينظر : الكشاف ٢ / ٤٣٥

(٤) ينظر : السابق ١ / ٣٤٢

(٥) ينظر : النكت في إعجاز القرآن / ٩٩

(٦) ينظر : حاشية الشهاب ٥ / ٣٨٢

(٧) ينظر : المحرر الوجيز ٣ / ٤٣٢ ، ٤ / ١٣١

(٨) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٢٠٢ ، والبحر المحيط ٥ / ٥٤٩

بكم صنيع سوء بمثله "(١)، أو لعله أخذه عن الزمخشري الذي ذكر أن هذا الفن " على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على السؤال "(٢).

أما أبو السعود فقد وضح نوع المجاز بأنه على طريقة إطلاق المسبب على السبب، أو على نهج المشاكلة(٣).

والمشاكلة هي رأي عدد من العلماء منهم ابن جزي الكلبي(٤)، والشهاب الخفاجي(٥)، والبروسوي (ت: ١١٣٧ هـ)(٦)، والألوسي(٧)، وابن عاشور الذي رأى أن في اللفظ استعارة وجه شبهها المشاكلة، كما جوَّز أن يكون اللفظ حقيقة ؛ " لأن ما يلقونه (أي المسلمون) من الأذى من المشركين قصدوا به عقابهم على مفارقة دين قومهم وعلى شتم أصنامهم وتسفيه آبائهم "(٨).

وهذا الاختلاف يعود إلى أمور أهمها:

---

(١) البحر المحيط ٥ / ٥٤٩

(٢) ذكر الزمخشري ذلك في معرض حديثه عن قوله تعالى : { إنَّ الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ـ الآية } [البقرة : ٢٦] وذكره بعض الشواهد التي صُنفت فيما بعد في باب المشاكلة . ينظر : الكشاف ١ / ٢٦٣ ـ ٢٦٤

(٣) ينظر : تفسير أبي السعود ٣ / ٣٠٥

(٤) ينظر : التسهيل ٢ / ١٦٥

(٥) ينظر : حاشية الشهاب ٥ / ٣٨٢

(٦) ينظر : روح البيان ٥ / ٩٩

(٧) ينظر : روح المعاني ٥ / ٢٥٧

(٨) التحرير والتنوير ١٤ / ٣٣٥ ـ ٣٣٦

- أن المصطلحات البلاغية لم تكن قد تحددت بعد تحديدا دقيقا.
- أن البلاغيين اختلفوا أصلاً في المشاكلة: أهي حقيقة أم مجاز ؟ أم قسيم ثالث بينهما ؟ ثم اختلفوا مرة أخرى: إذا كانت من قبيل المجاز فما علاقته ؟(١)

---

(١) اختلف العلماء في المشاكلة ، وما إذا كانت حقيقة أو مجازًا أو وسطًا بينهما . وحاصل ما ذكروه أن المشاكلة ليست حقيقة ؛ لأن اللفظ لم يستخدم فيما وضع له ، وليست مجازًا لعدم العلاقة المعتبرة كما يقول الدسوقي (ت : ١٢٣٠ هـ) ، ويرى ابن يعقوب المغربي (ت: ١١٢٨هـ) أن المصاحبة لا تصلح أن تكون علاقة لأن علاقة المجاز لا بد فيها من التقدم ، وعلاقة المصاحبة لا تصلح لذلك كما قال الدسوقي : " لأن المشاكلة أن يعدل= =عن اللفظ الدال على المعنى المراد إلى لفظ غيره من غير أن يكون هناك مجاورة بين مدلولي اللفظين وتقارن بينهما في الخيال ، فليس فيها إلا مجرد ذكر المصاحب بلفظ غيره لاصطحابهما في الذكر " ، ونقل الدسوقي عن عبد الحكيم أن المشاكلة لا تكون مجازًا ؛ لأنه لا بد في المجاز من اللزوم بين المعنيين في الجملة ، وأن المعنيين في المشاكلة تارة يكون بينهما علاقة من العلاقات المعتبرة في المجاز وتارة لا يكون بينهما علاقة ، كما أن في المشاكلة نقل المعنى من لباس إلى لباس ، فإن اللفظ بمنزلة اللباس ، أما المجاز ففيه نقل اللفظ من معنى لمعنى آخر ، ولا بد من علاقة مصححة للانتقال ، كما أن القول بكون المشاكلة مجازًا ينافي كونها من المحسنات البديعية ، وعلى هذا فالمشاكلة ليست حقيقة ولا مجازًا عند ابن يعقوب ، والدسوقي وعبد الحكيم في أحد قوليهما .

أما القائلون إن المشاكلة من المجاز فمنهم : بهاء الدين السبكي (ت : ٧٧٣ هـ) ، والتفتازاني (ت: ٧٩٢ هـ) ، والمولى عصام (ت : ٩٤٢ هـ) ، وأبو البقاء الكفوي (ت : ١٠٩٤ هـ) ، ومن المعاصرين : ابن عاشور ، والباحث أحمد محمد علي .

ثم اختلفوا في نوع العلاقة ، حتى قال التفتازاني فيما نقله عنه الكفوي : " تحقيق العلاقة في مجاز المشاكلة مشكل " ، وأيده في هذا المولى عصام والكفوي ، وذهب السبكي إلى أن " كل مشاكلة فهي استعارة " ، مما يوحي بأن العلاقة فيها المشابهة ، بل ذكر بعضهم أن في المشاكلة مجازًا باعتبار التشبيه ، ومن هؤلاء ابن يعقوب والدسوقي ، وقد ذكر ابن عاشور أن في الآية ـ موضع الدراسة ـ استعارة وجه شبهها المشاكلة ، وأجاز الكفوي أن تقع الاستعارة في بعض صور المشاكلة. =

- أن المفسرين في تفسيرهم للقرآن الكريم لا يجعلون المعنى الوضعي للفظ وَكْدَهم وغايتهم، بل ينظرون إلى المعنى السياقي الذي تستنبط منه المعاني والأحكام، وهو ما أسماه الشاطبي " المعنى التركيبي "(١)، وأشار إليه الدكتور تمام حسان بـ " المعنى المقامي "، ويتكون من ظروف أداء المقال، وهي التي تشتمل على القرائن الحالية المسماة " المقام "(٢).

وهذه المصطلحات (ازدواج، مزاوجة، مشاكلة) تدل على نظر العلماء إلى سياق النص، والتفاتهم إلى أول الكلام وآخره، وعلاقة أجزائه بعضها ببعض، قال الخطيب الإسكافي: " ولكن لقصد الازدواج، وتلاؤم أول الكلام وآخره، أُعطي الأول لفظ الثاني "(٣).

= ونقل الكفوي عن التفتازاني قولين في العلاقة ، أحدهما : المصاحبة في الذكر ، والآخر : التقارن في الخيال ، غير أنه (أي الكفوي) رفض اعتبار المصاحبة ورجح علاقة التقارن في الخيال ؛ " لأن العلاقة مصححة للاستعمال الذي به الوقوع في الصحبة ومقدمة عليها " . كما رفض المولى عصام أن تكون المصاحبة هي علاقة المشاكلة ، ويبدو من كلامه أنه يرى أن العلاقة تُفهم من السياق وليست هناك علاقة محددة .

ومن المعاصرين رجح الباحث أحمد محمد علي أن المشاكلة من المجاز ، وأن علاقته المصاحبة ، وهو ما أراه وأميل إليه . ولا يمنع هذا من اقتران المشاكلة بالاستعارة ، أو وجود علاقات مجازية أخرى كالمجاورة والسببية وغيرهما ، والله أعلم . (ينظر : شروح التلخيص ٤ / ٣٠٩ ـ ٣١٥ ، والأطول ٢ / ٣٨٨ ، والكليات ٨٤٣ ـ ٨٤٤ ، والتحرير والتنوير ١٠ / ٣٣٥ ، ودراسات في علم البديع لأحمد محمد علي / ١٤٠)

(١) ينظر : الموافقات ٢ / ٦٣

(٢) ينظر : اللغة العربية معناها ومبناها / ٣٣٩

(٣) المجالس / ٦٨

كما يبرز أثر السياق الثقافي في الترجيح لبعض دلالات اللفظ، على نحو ما رأينا عند الشهاب الخفاجي الذي أشار إلى أثر العرف الاجتماعي في استخدام دلالات للألفاظ تخرج عن دلالتها الوضعية.

هذا وبلاغة التعبير عن (**الاعتداء**) ـ وهو ما يكون من الإساءة ابتداء ـ بلفظ (**العقاب**) ـ وهو ما يكون من الإساءة قِصاصًا ـ للدلالة على اشتراط المماثلة التامة، فالعقاب يكون على قدر الاعتداء كمًّا وكيفًا كما سيأتي، فضلاً عما في ذلك من تناسب اللفظ مع سياقه، قال القرطبي معقِّبًا: " سمى الله تعالى الإذايات(١) في هذه الآية عقوبة، والعقوبة حقيقة هي الثانية ؛ وإنما فعل ذلك ليستوي اللفظان وتتناسب ديباجة القول "(٢).

وإذا كانت (**المجازاة**) وهي العقوبة قد ظهرت في مواضع من القرآن بلفظ (**الاعتداء**) أو (**السيئة**)، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾البقرة: ١٩٤ وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾الشورى: ٤٠ فإن هذا يشير إلى أثر السياق الحالي أو المقامي في اختيار اللفظ الملائم، فقد اختلف المقام في كل موضع، ففي آية البقرة حيث مقام الدعوة إلى القتال اختير لفظ (**الاعتداء**) إثارة للحمية في النفوس لنصرة دين الله جل وعز، وقد استُهلت آيات القتال بالنهي عن الاعتداء ابتداء ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ البقرة: ١٩٠ ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ البقرة: ١٩٠، وتوسطها النهي عن العدوان إلا على الظالمين ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى

---

(١) كذا، ولعلها (الأذيّات)

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٢٠٢

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ البقرة: ١٩٣ ، ثم جاء ختامها: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾ وفيها أمر بالاعتداء على سبيل المشاكلة.

أما المقام في آية الشورى ففي بيان صفات المؤمنين والدعوة إلى الفضائل ومكارم الأخلاق، وهي في مجملها تبرز آداب التعامل في المجتمع المسلم مع المسلمين وغيرهم في حال السلم والموادعة، فكان التعبير بـ **(السيئة)** ألطف موقعًا وأنسب لجو السلم.

أما الأمر في آية النحل فمختلف ؛ ذلك أن نفوس المسلمين مشحونة بالغضب والغيظ، وتتمنى فرصة للنيل من المشركين الذين أذاقوهم مرارة الهزيمة، والقرآن الكريم يريد أن يسمو بأخلاق المسلمين إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه، ويربيهم ليكونوا قدوة لغيرهم، فاقتضى الأمر تهدئة النفوس الثائرة والتلطف في خطابها بما يجعلها تتطامن وتفيء إلى الحق وهي راضية، فاختير لفظ **(العقاب)** الذي يعطي المسلمين الحق في القِصاص والانتقام من أعدائهم، وفي الوقت نفسه بلا تجاوز أو غلو ،فتسكن النفوس شيئًا فشيئًا إلى أن تتلو قوله تعالى: { ولئن صبرتم لهو خير للصابرين } ، فتهدأ ثائرتها، ويبرز نموذج المسلم المستعلي بالحق على الأحقاد، المنتصر على نفسه قبل أن ينتصر لها من أعدائها، والذي يتخذ من رسوله الكريم ﷺ قدوة له، فقد كان لا ينتصر لنفسه قط، وهو في هذا السياق أمره تعالى بالصبر عزمًا فقال له: { واصبر } ، وفي العادة فإن الإنسان إذا أُعطي حق الانتصار لنفسه فإنه يسكن ويتراجع.

وإذا نظرنا إلى مفردة (**العقاب**) في السياق القرآني العام فسنجدها وردت في خمسة وعشرين موضعًا في القرآن الكريم ، منها عشرون موضعًا بصيغة الاسم (العقاب)، وخمسة مواضع بصيغة الفعل، ثلاثة منها في الآية موضع الدراسة، واثنتان في نظيرتها: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ الحج: ٦٠.

ومن اللطائف في هذا أن المواضع العشرين جاء (**العقاب**) وصفًا لله جل وعز، وكلها بصيغة الاسم نحو قوله: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ آل عمران: ١١ ﴿سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾ الأنعام: ١٦٥ ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ الرعد: ﴿كَانَ عِقَابِ﴾ غافر: ٥، أما المواضع الخمسة في الآيتين فكان العقاب متعلقًا بالبشر، وكأن في هذا إشارة إلى أن العقاب من اختصاص الله جل وعلا، المتصرف في خلقه كيف يشاء، أما البشر فليس لهم ذلك، وعلى فرض الحاجة إليه فينبغي أن يكون ذلك بقدر الضرورة بلا تجاوز أو تعدٍّ.

المطلب الثاني

مفردة (مثل)

من بلاغة التعبير القرآني استخدام مفردة (**المثل**) للدلالة على المماثلة، على الرغم من وجود نظائر لها في المعجم اللغوي، فالكاف تعطي معنى المماثلة أيضًا ،لكنها تستخدم في تشبيه الصفات بعضها ببعض، أما المثل فهو في تشبيه الذوات(١)، وهو المقصود ها هنا، وهناك لفظ (الندِّ)، ويستخدم في الذوات، لكنه يطلق على " ما كان مثل الشيء يضاده في أموره "(٢)، ومنها ما هو خاص بالأفعال دون الذوات كالنظير(٣)، ومنها ما يستخدم في الأمور المحسوسة كألفاظ الشِّبْه والمساواة والشكل، فتطلق على المشابهة في الكيفية والكم والحجم(٤)، أما لفظ (**المثل**) فهو " عام في جميع ذلك "(٥).

وبالنظر إلى السياق المقامي وما جاء من روايات في أسباب النزول تتضح بلاغة هذه المفردة في هذا السياق، فقد قال ابن إسحاق: " وخرج رسول الله ﷺ... يلتمس حمزة بن عبد المطلب، فوجده ببطن الوادي قد بقر بطنه عن كبده، ومُثِّل به فجُدِع أنفه وأذناه، فحدثني محمد بن جعفر بن الزبير أن رسول الله ﷺ قال ـ حين رأى ما رأى ـ: " لولا أن تحزن صفية

---

(١) ينظر : الفروق / ١٦٩

(٢) السابق / ١٦٨ نقلاً عن (العين) للخليل

(٣) ينظر : السابق ، الصفحة نفسها

(٤) ينظر : الفروق / ١٦٩ ، والمفردات / ٤٦٢ ، والكليات / ٨٤٣

(٥) المفردات (مثل) / ٤٦٢

وتكون سنة من بعدي لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلنَّ بثلاثين رجلاً منهم ". فلما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغيظه على من فعل بعمه ما فعل قالوا: " والله لئن أظفرنا الله بهم يومًا من الدهر لنمثِّلنَّ بهم مُثلةً لم يمثِّلها أحد من العرب "... وحدثني من لا أتهم عن ابن عباس أن الله عز وجل أنزل في ذلك من قول رسول الله ﷺ وقول أصحابه: { وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به... } فعفا رسول الله ﷺ وصبر ونهى عن المُثلة"(١).

فجاءت الآية بهذه المفردة **(مثل)** لِما فيها من معنى العموم لتدل على اشتراط المماثلة في العقوبة كمًّا وكيفًا وحجمًا، فإن كانوا قد مثَّلوا بواحد فمثِّلوا بواحد، وإن كانوا قد مثَّلوا بسبعين فمثِّلوا بسبعين، لا تزيدون ولا تنقصون في العدد ولا في الكيفية، تربية للمسلمين على العدل والإنصاف، ولما كان هذا الشرط يكاد يكون مستحيلاً جاء التوجيه بالصبر والعفو بدلاً من العقاب.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٨٧٧ـ٨٧٨

المطلب الثالث

مفردة (الصبر)

الصبر في اللغة هو " الإمساك في ضيق "، أو هو " حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه "(١)، هذا هو المعنى العام للصبر، ثم تختلف أسماؤه باختلاف مواضعه، " فإن كان حبس النفس لمصيبة سُمي (صبرًا) لا غير، ويضاده الجزع "(٢).

والمقام في الآية الكريمة مقام الصبر على المصيبة خاصة والصبر عن الانتقام والتشفي، ولهذا أهميته لأنه يقتضي العفو وترك المعاقبة المشار إليها في الآية الأولى، ولهذا فسَّر بعض العلماء معنى **(الصبر)** سياقيًّا بأنه **العفو** ، على نحو ما نجد عند البغوي (ت: ٥١٦ هـ)(٣)، والعكبري (ت:٦١٦هـ)(٤)، والقرطبي(٥)، والبيضاوي(٦). وقد تكرر الحديث عن **(الصبر)** في صيغ عدة **(صبرتم / الصابرين / اصبر)**.

وإذا كان السياق يوحي بأن المراد بالصبر ترك المعاقبة والأخذ بالثأر بالنظر إلى مناسبة الآيات، فإن مقاصد الشرع تؤخذ على عمومها خاصة في مجالات التربية والتوجيه، ومن هنا فإن سياق المقصد يرجح دلالة الصبر

---

(١) المفردات (صبر) / ٢٧٣

(٢) السابق ، الصفحة نفسها

(٣) ينظر : تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل ٣ / ٩١

(٤) ينظر : التبيان في إعراب القرآن ٢ / ٨١٠

(٥) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٢٠٢

(٦) ينظر : تفسير البيضاوي على هامش حاشية الشهاب ٥ / ٣٨٣

بمعناه العام، ولنقرأ قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾البقرة: ٤٥ ، أي: " استعينوا على جميع المطالب، وفي جميع شؤونكم بالصبر، فبالصبر: يسهل على العبد القيام بالطاعات، وأداء حقوق الله وحقوق عباده. وبالصبر يسهل عليه ترك ما تهواه نفسه من المحرمات فينهاها عن هواها حذر شقاها، وطلبًا لرضى مولاها، وبالصبر تخف عليه الكريهات"⁽¹⁾، وقد ذكر الراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢ هـ) أن الله تعالى سمى كل ذلك صبرًا⁽²⁾.

وفي هذا الإطار نتناول مادة (**الصبر**) في السياق القرآني العام، وقد وردت في ثلاثة ومائة موضع، وجاءت بالمعنى العام غير مقترنة بمتعلق في أربعة وثمانين موضعًا، وسياقاتها ترجح عموم الصبر على المكاره (المصائب)، وعلى أقدار الله المؤلمة، وعلى الطاعات.

أما حين تقترن هذه المادة بمتعلق فنجد الحرف (**على**) يتعلق بها في ثلاثة عشر موضعًا، كلها في الصبر المحمود عدا أربعة مواضع، اثنان في صبر المشركين على آلهتهم⁽³⁾، وثالث في نفي صبر بني إسرائيل على طعام واحد⁽⁴⁾، ورابع في صبر الكافرين على النار يوم القيامة⁽⁵⁾.

---

(١) القواعد الحسان لتفسير القرآن / ١٨٣

(٢) ينظر : المفردات (صبر) / ٢٧٣

(٣) تنظر الآيتان : الفرقان : ٤٢ ، ص : ٦

(٤) تنظر : الآية : البقرة : ٦١

(٥) تنظر : الآية : البقرة : ١٦

ويتعلق الحرف (في) بالصبر في مقام المكاره في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِ﴾البقرة: ١٧٧ ، كما يأتي حرف **اللام** مع (الصبر) في مواضع خمسة ليبين علة الصبر وغايته: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ الطور: ٤٨ ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾ المدثر: ٧ ﴿وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ مريم: ٦٥... إلخ، وجميع هذه السياقات خاصة بالرسول الكريم ﷺ. وجاء التوجيه بالصبر إليه متعديًا في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ الكهف: ٢٨ ، وهو الموضع الوحيد الذي وقع فيه الفعل متعديًا بنفسه. ويأتي الأمر بالصبر له ﷺ في تسعة عشر موضعًا بصيغة الثلاثي **(اصبر)**، وفي موضعين بصيغة المزيد **(اصطبر)**، وغالب هذه المواضع أمر له ﷺ بالصبر تأسيًا بالرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم، وفيها نجد التوجيه له بالصبر على أذى الكافرين وأقوالهم فيه وتكذيبهم له، وعلى ما يناله من المصائب (كآية الدراسة)، وعلى عبادة الله تعالى وطاعته. وقد دعا الله عز وجل نبيه ﷺ إلى الصبر مستعينًا به سبحانه وتعالى، قال ابن سعدي:

" والذي يعين على الصبر معرفة حقيقته، ومعرفة سبله وعواقبه، ومعرفة الجزع وسبله وعواقبه "(١). ونجد بيان ذلك في الآيات الكريمة، فالصبر المراد في الآية إمساك النفس عن الجزع والضيق، وكفها عن الانتقام والتشفي، والسبيل إلى ذلك الاستعانة بالله عز وجل ﴿وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي بتوفيقه وعونه للعبد، وتثبيته له، وتيسير ذلك له، وثمرة هذا وعاقبته

---

(١) القواعد الحسان / ١٨٣

الخيرية { لهو خير للصابرين / إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون} ، فبالصبر ينال المؤمن لكل خير، ويحظى بمعية الله تعالى.

أما الجزع فهو على النقيض، وبمفهوم المخالفة في الآيات يتبين لنا أن الجزع يعني الحزن والضيق، والغضب والرغبة في الانتقام، وسبيله الإعراض عن العفو واللجوء إلى العقاب للتشفي، وعاقبته الخروج عن الخيرية، والحرمان من معية الله سبحانه وتعالى.

المطلب الرابع

مفردة (الحزن)

جاءت هذه المفردة في قوله تعالى: { ولا تحزن عليهم }، والخطاب للرسول الكريم ﷺ، واختلف المفسرون في عائد الضمير **(عليهم)** على وجهين:

الأول: أنهم الكافرون الذين أُمر الرسول ﷺ ألا يحزن عليهم بسبب كفرهم وإعراضهم.

الثاني: أنهم شهداء المسلمين الذين قُتلوا في (أُحد).

لكن الأرجح أن الآية تنهى عن الحزن على الكافرين لمرجحات أهمها:

- **سياق النص :**

فنظم الآية وسياقها يتحدث عن الكافرين { ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون } ، فلا يليق أن يكون الضمير في الجملة الأولى عائدًا على المسلمين وفي الثانية على الكافرين وهما في سياق واحد.

- **رأي جمهور المفسرين:**

فعدد كبير منهم ذكر عود الضمير على الكفار(١)، مما يدل على اعتنائهم بالبعد السياقي في التفسير، قال أبو السعود: " هو الأنسب بجزالة اللفظ الكريم "(٢).

- **السياق القرآني العام:**

---

(١) ينظر على سبيل المثال : المحرر الوجيز ٣ / ٤٣٣ ، والتبيان للعكبري ٢ / ٨١٠ ، والبحر المحيط ٥ / ٥٥٠ ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ٢٣٧ ، وتفسير أبي السعود ٣ / ٣٠٥، وحاشية الشهاب الخفاجي ٥ / ٣٨٤ ، وروح المعاني ٥ / ٢٥٨ ، والتحرير والتنوير ١٤ / ٣٣٧ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٣٠٥

وهو مما استأنس به المفسرون في ترجيحهم، فقد استدلوا بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ المائدة: ٦٨ ⁽¹⁾، ويدل على هذا أيضًا قوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ الشعراء: ٣ ⁽²⁾، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ الكهف: ٦ ، وقوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾الأنعام: ٣٣ وباستقصاء السياق القرآني العام يتضح أن مفردة (**الحزن**) جاءت في القرآن في اثنين وأربعين موضعًا، منها عشرة مواضع توجه الخطاب فيها للرسول ﷺ، وتسعة منها تنهاه عن الحزن على الكافرين بما فيها آية الدراسة. وهذا يؤكد أن الآية الكريمة تتحدث في سياقها العام عن الكافرين، والله أعلم.

---

(١) ينظر : الكشاف ٢ / ٤٣٥ ، والبحر المحيط ٥ / ٥٥٠ ، وتفسير أبي السعود ٣ / ٣٠٥ ، وروح المعاني ٥ / ٢٥٨

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ١٤ / ٣٣٧

المطلب الخامس

مفردة (الضيق)

في قوله تعالى: (في ضيق) قراءتان: بفتح الضاد وهي قراءة الجمهور، وبكسرها وهي قراءة ابن كثير. واختلف توجيه القراءتين بالنظر إلى اللفظ وبنائه الصرفي ودلالاته اللغوية والمنظور السياقي له.

فمن العلماء من فرَّق بين دلالتي اللفظ بفتح الضاد وكسرها، فذكر الفرَّاء (ت: ٢٠٧ هـ) ـ وهو من الكوفيين ـ أنَّ **(الضيق)** بالفتح يكون لِما في الصَّدْر، وبالكسر لِما يتَّسع كالثوب والدار(١)، ووافقه في ذلك عدد من العلماء كأبي عبيدة (ت: ٢١٠ هـ تقريبًا)، وابن جرير الطبري، وابن خالويه (ت: ٣٧٠ هـ)، والراغب الأصفهاني، والسمين الحلبي (ت: ٧٥٦ هـ). فقد نقل البغوي عن أبي عبيدة قوله: " الضِّيق ـ بالكسر ـ في قلة المعاش وفي المساكن، فأما ما كان في القلب والصدر فإنه بالفتح "(٢)، كما قال ابن خالويه: " والاختيار ـ هاهنا ـ الفتح ؛ لأن الضِّيق ـ بالكسر ـ في الموضع، والضَّيْق ـ بالفتح ـ في المعيشة، والذي يُراد به ـ هاهنا ـ ضيق المعيشة لا ضيق المنزل "(٣)، وقال الراغب معقبًا على قوله تعالى: ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ هود: ١٢ وقوله: ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ النمل: ٧٠: " كلُّ ذلك عبارة عن

---

(١) ينظر : معاني القرآن ٢ / ١١٥

(٢) تفسير البغوي ٣ / ٩١

(٣) الحجة في القراءات السبع / ٢١٣

الحزن"(١) ، وقال أيضًا: " والضَّيْقة يستعمل في الفقر والبخل والغَمِّ ونحو ذلك "(٢)، وتابعه في هذا السمين الحلبي(٣).

وقد علَّل الطبري لقراءة الفتح حين قال موضِّحًا: " وأولى القراءتين بالصواب في ذلك عندنا قراءة من قرأه: (في ضَيْق) بفتح الضاد ؛ لأن الله تعالى إنما نهى نبيَّه ﷺ أن يضيق صدره مما يلقى من أذى المشركين على تبليغهم إياهم وحي الله وتنزيله... وإذا كان ذلك هو الذي نهاه تعالى ذكره ففتح الضَّاد هو الكلام المعروف من كلام العرب في ذلك المعنى، تقول العرب: في صدري ضَيْق، وإنما تُكسَر الضاد في الشيء المعاش وضيق المسكن ونحو ذلك "(٤).

وبيِّنٌ هنا أن الطبري يستعين في الترجيح لِرأيه بالمعنى الدلالي للنص، ويعزِّزه بالسياق الكلي للخطاب القرآني ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ الأعراف:٢ و ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ هود: ١٢ (٥)، كما يستعين بالسياق الثقافي (معهود العرب) في الترجيح.

أما البصريون فلم يجيزوا هذه التفرقة المعنوية بين الصيغتين، قال أبو جعفر النحاس: " ولا يعرف البصريون من هذا التفريق شيئًا، وقالوا: إذا

---

(١) المفردات (ضيق) ٣٠٠

(٢) السابق ، الصفحة نفسها

(٣) ينظر : عمدة الحفاظ (ضيق) ٢ / ٤٥٣

(٤) جامع البيان ١٣/ ٢٣٠

(٥) ينظر : المصدر السابق ١٣ / ٢٣٠

أردْتَ المصدر قلتَ: الضَّيْق، كما تقول: البَيْع، وإن أردتَ الاسم قلتَ: الضِّيق، كما تقول: العِلْم، وأجازوا في (ضيِّق) التخفيف "[1] ، أي أن (ضَيْق) بالفتح مصدر، وبالكسر اسم، وبهذا الاعتبار فإنه يقع صفة في الآية، وهو مردود عند أبي علي الفارسي (ت: ٣٧٧ هـ) الذي قال معلِّلاً لذلك: " وينبغي أن يُحمَل على أن (ضَيْقًا) مصدر لأنك إن حملْتَه على أنه مخفف: من (ضيِّق) فقد أقمْتَ الصفة مقام الموصوف من غير ضرورة، والمعنى: (لا تك في ضيق)، أي: لا يضق صدرك من مكرهم، كما قال: (وضائق به صدرك) [هود: ١٢]، وليس المراد: لا تكن في أمرٍ ضيِّق "[2]، وتابعه في هذا أبو حيان[3].

وقد ردَّ على هذا الرأي الشهاب الخفاجي بأنه " إذا كانت الصفة عامة وقُدِّر موصوف عام فلا مانع منه "[4]، وهذا القول يحتكم إلى السياق اللغوي في الترجيح.

وهناك رأي ثالث بأن الضِّيق والضَّيْق لغتان في المصدر كالقيل والقول، فلا فرق، وممن ذهب إلى هذا الهنائي (ت: ٣١٠ هـ)[5]، والفيروزأبادي (ت: ٨١٧ هـ)[6].

---

[1] إعراب القرآن ٢ / ٢٢٨

[2] الحجة للقراء السبعة ٣ / ٤٦

[3] ينظر : البحر المحيط ٥ / ٥٥٠

[4] حاشية الشهاب ٥ / ٣٨٤

[5] ينظر : المنتخب من غريب كلام العرب ٢ / ٥١٣

[6] ينظر : القاموس المحيط (ضيق) / ١١٦٥

ولنحتكم إلى السياق الكلي للخطاب القرآني لنرى أيُّ الآراء أولى بالترجيح.

فقد جاءت مفردة (**الضيق**) بمشتقاتها في القرآن الكريم في ثلاثة عشر موضعًا بما فيها آية الدراسة، منها أحد عشر موضعًا يُراد به الضيق المعنوي، وموضع واحد في الضيق المادي، وموضع آخر يحتملهما جميعًا. وفي هذه المواضع جاء الفعل الماضي (**ضاق**) في خمسة مواضع(١)، والمضارع (**يضيق / تضيِّقوا**) في ثلاثة مواضع(٢)، والمصدر (**ضَيْق**) في موضعين(٣)، والاسم (**ضَيِّق**) في موضعين أيضًا(٤)، واسم الفاعل (**ضائق**) في موضع واحد(٥)، وهذه الصِّيَغ جاءت بصيغة التخفيف ما عدا المضارع (**تضيِّقوا**) وهو يحتمل المعنيين المادي والمعنوي(٦)، ولعل المعنوي أقوى لأن الضيق المادي محتمل، كما أنه يؤدي إلى الضيق المعنوي. والاسم (**ضيِّق**) وقد وقع وصفًا لأشياء مادية ومعنوية(٧).

وهذا الاستعمال القرآني هو الغالب مما يجعلنا نقول إن التفرقة بين الصيغتين (**ضِيق / ضَيْق**) هي الأولى، وأنَّ ثمة فرقًا في الدلالتين كما أشار

---

(١) تنظر الآيات: هود: ٧٧، العنكبوت: ٣٣، التوبة: ٢٥، ١١٨

(٢) تنظر الآيات: الحجر: ٩، الشعراء: ١٣، الطلاق: ٦

(٣) تنظر الآيتان: النحل: ١٢٧، النمل: ٧٠

(٤) تنظر الآيتان: الأنعام: ١٢٥، الفرقان: ١٣

(٥) تنظر الآية: هود: ١٢

(٦) وذلك في قوله تعالى: { ولا تضارُّوهنَّ لِتُضيِّقوا عليهنَّ } [الطلاق: ٦]

(٧) وذلك في قوله تعالى: ﴿**يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا**﴾ الأنعام: ١٢٥، وقوله: ﴿**مَكَانًا ضَيِّقًا**﴾ الفرقان: ١٣

الفراء، وهو ما تُقِرُّه طبيعة اللغة التي تذهب إلى وضع الصيغ المختلفة للمعاني المختلفة وإن كانت كلها ترجع إلى أصل واحد، وسبقت الإشارة إلى ترجيح الطبري لهذا الرأي والمسوِّغات التي استند إليها.

وقد بيَّن الفرَّاء أنه إذا وقع (الضَّيْق) في موقع (الضِّيق) فهو على وجهين: " أحدهما: أن يكون جمعًا واحدته (ضَيْقة)... والوجه الآخر: أن يُراد به شيء ضيِّق فيكون مخفَّفًا "(١). مما يشير إلى أن الأصل عنده أن تستقل كل مفردة بمعناها.

هذا إذا نظرنا إلى المفردة من حيث المعنى، فإذا تناولناها من جانب آخر وهو المستوى الصرفي فسنجد أمرًا آخر ؛ فالمدُّ في (ضِيق) يوحي بالاتِّساع، ويناسب المعنى الحسِّيَّ. أما (ضَيْق) فيوحي خطف الحركة بالحالة النفسية للشخص وما به من كبْتٍ وقهْر ،كما أنه يشير إلى أن الحزن والضيق ليسا من سمات الشخصية المسلمة، بل هما عارضان سرعان ما يزولان إذا لجأ المسلم إلى ربه يسأله العون والتوفيق، مما يكشف عن أثر المستوى الصرفي في الدلالة المعجمية للفظ.

ومن المعروف أن الحزن يضيق به صدر الإنسان، فيشعر وكأن الأرض قد ضاقت به على سعتها، وقد عبَّر الكتاب العزيز عن هذا المعنى بقوله: {ولا تك في ضَيْق }، وذكر الفخر الرازي أنَّ (في ضيق) يفيد معنى الاحتواء ؛ وذلك " أن الضيق إذا عظُم وقوِيَ صار كالشيء المحيط

---

(١) معاني القرآن ٢ / ١١٥

بالإنسان من كل الجوانب وصار كالقميص المحيط به "(١). وعلى هذا المعنى فإن في الكلام قلبًا " لأن الضيق صفة، والصفة تكون حاصلة في الموصوف ولا يكون الموصوف حاصلاً في الصفة، فكأن المعنى: فلا يكن الضيق فيك"(٢)، إلا أنه عدل به عن هذا الوجه لِما ذُكر من أن عِظَم الضيق وقوته صيَّراه كالقميص الضيق المحيط بالإنسان.

---

(١) التفسير الكبير ٢٠ / ١٤٤

(٢) السابق ، الصفحة نفسها

المبحث الثالث

أثر السياق في البناء التركيبي للآيات

من بلاغة النظم الكريم إحكام البناء التركيبي للآيات ،وترابط عناصره وأجزائه معجميًّا ودلاليًّا، ذلك الترابط الذي جعل عالمًا كبيرًا من علماء السلف كالبقاعي (ت: ٨٨٥ هـ) يشير إليه في عبارة وجيزة متحدثًا عن ترابط الآيات فيقول: " فقد عانق أولها آخرها، ووافق مقطعها مطلعها "(١). وتعرض الدراسة فيما يلي جوانب من بلاغة البناء التركيبي للآيات ومدى مناسبته للسياق.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١١ / ٢٨٥

المطلب الأول

أسلوب الإنشاء

يتميز أسلوب الإنشاء بما فيه من أمر ونهي بكونه الأنسب لمقام التوجيه والإرشاد، ففي موقف كهذا الموقف الذي عاشه المسلمون وعانوا فيه مرارة الهزيمة والقتل والتمثيل بشهدائهم فهم في أمس الحاجة إلى ما يوضح لهم السبيل وكيفية التعامل مع الموقف، فجاء أسلوب الأمر هاديًا ومرشدًا لهم في قوله تعالى: (فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به)، ومرَّ بنا أن الأمر للوجوب والإلزام.

ولما كان الرسل صفوة الخلق والقدوة المثلى لأتباعهم جاء الأمر إلى الرسول الكريم ﷺ بالصبر، فكان عزيمة في حقه (واصبر وما صبرك إلا بالله)، قال أبو حيان: " ولما خيِّر المخاطبون في المعاقبة والصبر عُزِم على الرسول ﷺ في الذي هو خير وهو الصبر، فأُمر وحده بالصبر "(١). هذه خصيصة مميزة للرسول الكريم صلوات ربي وسلامه عليه، فقد خُصَّ بالصبر " للإشارة إلى أن مقامه أعلى، فهو بالتزام الصبر أولى أخذًا بالعزيمة بعد أن رخَّص الله لهم في المعاقبة "(٢). وقد وعد الله عز وجل رسوله أن يكون الصبر عليه سهلاً إذا ما استعان به تعالى (وما صبرك إلا بالله)، فالباء للاستعانة، وجاء أسلوب القصر مبالغة في تهييج العزيمة عنده ﷺ، فهو

---

(١) البحر المحيط ٥ / ٥٥٠

(٢) التحرير والتنوير ١٤ / ٣٣٦

لا ينكر أن صبره بالله تعالى وبتوفيق منه، ولكن لإثارة الاطمئنان خصوصًا أن الأمر فيه عزيمة.

أما أسلوب النهي فجاء في قوله تعالى: (ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق) ليفيد تسلية الرسول ﷺ والتسرية عما هو فيه من حزن وألم على الكافرين لعدم إيمانهم، فهو على غرار قوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ المائدة: ٦٨ وقوله﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ الشعراء: ٣ وكان يكفي الأمر بالصبر، لكن أعقبه بذكر النهي عن الحزن والضيق ـ وهما من لوازم الصبر ـ للتسلية وزيادة التأكيد، فالمراد ـ إذًا ـ محض التسلية لا حقيقة النهي، قال أبو السعود: " والنهي عنهما مع أن انتفاءهما من لوازم الصبر المأمور به... لزيادة التأكيد، وإظهار كمال العناية بشأن التسلية "(١).

---

(١) تفسير أبي السعود ٣/ ٣٠٦

المطلب الثاني

أسلوب التوكيد

كان الجو العام للآيات الكريمات فيه تهدئة للنفوس الثائرة وإثارة للطمأنينة والرضى بقضاء الله لعباده المؤمنين، ولذلك اشتمل البناء التركيبي على جملة من المؤكدات منها: القسم، والجملة الاسمية، والقصر.

ويتجلى أسلوب القسم في قوله تعالى: (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين)، فهاهنا قسم مقدر دلَّ عليه اللام الموطئة في (لئن)، وتقدير الكلام -والله أعلم-: والله لئن صبرتم لَلصبر خير للصابرين، أو: لصبركم... وجاء الجواب جملة اسمية (لهو خير...)، مما يزيد الكلام تأكيدًا يتناسب مع السياق ؛ لبيان فضيلة الصبر وأنه خير من الانتقام وأخذ الثأر.

كما نجد الجملة الاسمية وقد توشحت بالقصر في قوله تعالى: (وما صبرك إلا بالله)، لبيان أن العبد لا حول له ولا قوة بدون معية الله ﷿، وأن زاد الصبر قد ينفد إذا طال أمده، ولا سبيل لدوامه واستمراره إلا بالاتصال بالمولى سبحانه، بيده الحول والطول، وهو قصر حقيقي، وجئ بأقوى أدوات القصر: النفي والاستثناء، مع أن المخاطب وهو الرسول ﷺ لا يشك ولا ينكر أهمية الصبر ولا معية الله للصابرين، مبالغة في تأكيد هذه الحقيقة وترسيخها في النفوس، قال أبو السعود مبينًا بلاغة القصر: " وفيه

من تسليته عليه الصلاة والسلام وتهوين مشاق الصبر عليه وتشريفه ما لا مزيد عليه "(١).

وقد جاءت خاتمة الآيات (إن الله مع الذين اتقوا...) مؤكدة بإِنَّ واسمية الجملة وتكرار الموصول لبعث مزيد من الاطمئنان في النفوس ؛ فمعية الله ﷻ تتحقق لعباده المؤمنين الذين اتقوه بفعل الطاعات من الامتثال لأمر الله بترك العقاب وعدم تجاوز حدوده، وهم محسنون بالصبر على المكاره وهو مقام الإحسان، وهذه المعية من الله تعالى تكون بتأييده ونصره ومعونته وهديه، وهي خاصة بالمؤمنين(٢).

وقوله: (اتقوا) إشارة إلى تعظيم أمر الله ﷻ، كما أن قوله (والذين هم محسنون) إشارة إلى الشفقة على خلق الله، وكلا الأمرين هما مدار السعادة للإنسان(٣).

وفي تكرار الموصولين إشعار بأن معية الله ﷻ حاصلة لكل من الموصولين(٤)، فليس أحدهما متمِّمًا للآخر. وقد جاءت جملة الصلة الأولى فعلية (اتقوا) للدلالة على الحدوث، أي إحداث التقوى من المؤمنين أوَّلا، أما الصلة الثانية فكانت اسمية (هم محسنون) للإشارة إلى كون الإحسان

---

(١) تفسير أبي السعود ٣/ ٣٠٥

(٢) ينظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ٢٣٧

(٣) ينظر : التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٠ / ١٤٥

(٤) ينظر : تفسير أبي السعود ٣ / ٣٠٦

صفة راسخة لهم(١)، فالإحسان وصف ثابت للمؤمنين نتج عن تقواهم لربهم.

وتقديم التقوى على الإحسان لما أن التخلية مقدمة على التحلية، وهو من مبادئ الحكيم(٢)، فالفلاح - مثلاً - يُخلي أرضه من الحشائش الضارة قبل زراعتها، ثم يحلِّيها ببذر البذور، فيكون الإنبات والإثمار - بإذن الله - على خير ما يكون.

والمراد بالموصولين إمَّا جنس المتقين والمحسنين فيدخل الرسول ﷺ في زمرتهم دخولاً أوليًّا، وإما الرسول ﷺ ومن شايعه، وفي ذلك إشعار بضرورة اقتداء الأمة به ﷺ.

وهكذا يتضح من النظم الكريم اختلاط الرسول ﷺ مع متبعيه في صف واحد هو صف المتقين والمحسنين الذين ينعمون بمعية الله تعالى لهم، وكفى بالله وليًّا ونصيرًا.

---

(١) ينظر: المصدر السابق ٣/ ٣٠٧

(٢) ينظر: المصدر السابق، الصفحة نفسها

المطلب الثالث

أسلوب الشرط

استهل البناء التركيبي للآيات بالجملة الشرطية، وهو أسلوب للربط يقوم على فعل ورد فعل في الغالب، وهو مناسب للسياق كل المناسبة ؛ إذ يبين للمسلمين رد الفعل المناسب للموقف والذي ينبغي أن يتميزوا به عن غيرهم، فليست الحرب طلبًا لثأر أو انتصارًا لهوى النفس، بل هي وسيلة لغاية شريفة هي الوصول إلى رضى الله تعالى، ويجب أن يستعلي المسلمون بأخلاقهم ويقدموا صورة للحرب الشريفة، فكان الأسلوب الشرطي هو الأنسب في هذا المقام.

ولقد استخدم البيان القرآني أداة الشرط (إنْ) في قوله تعالى: (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين)، و (إنْ) تفيد الشك، فهي ـ كما قال عبد القاهر ـ تأتي فيما يترجح بين أن يكون وأن لا يكون، بخلاف (إذا) تكون فيما هو كائن(١). وهذه الأداة مغزاها في الإشارة إلى أن العفو أولى بالمؤمنين ؛ لأنها شككت في احتمال وقوع العقوبة منهم لرفعة أخلاقهم، ففيها تعريض ـ كما ذكر الألوسي ـ بالعفو، " لِما في (إن) الشرطية من الدلالة على عدم الجزم بوقوع ما في حيزها، فكأنه قيل: لا تعاقبوا وإن عاقبتم... إلخ "(٢). وفي قوله تعالى: (ولئن صبرتم...) جاءت (إنْ) أيضًا للشك في وقوع الصبر لكونه عسيرًا وشاقًّا على النفس

---

(١) ينظر : دلائل الإعجاز (ط دار المعرفة) / ٦٤

(٢) روح المعاني ١٤ / ٢٥٨

البشرية، خاصة مع وجود من سبَّب لها الأذى والألم مما يُغري بالانتقام منه، ولذلك جاء التوكيد في قوله: (لهو خير للصابرين)، فخيرية الصبر تدفع إلى احتماله وتجرع مرارته طلبًا لِما هو خير.

هذا والأصل في فعل الشرط أن يكون مضارعًا، فإذا أتى ماضيًا فلا بد من ضرورة اقتضت ذلك، وعلى هذا فمجيء فعل الشرط (**عاقبتم، صبرتم**) ماضيًا له دلالته، فقوله: (عاقبتم) يدل على توفر الرغبة عند المخاطبين في الانتقام ممَّن مثَّل بقتلاهم ووجود دواعي الانتقام لديهم، كما أن قوله: (صبرتم) فيه إشارة إلى رغبة القرآن الكريم في حدوث الصبر لدى المخاطبين وأنه الأولى بهم.

أما جواب الشرط فقد جاء إنشائيًا في قوله تعالى: (**وإن عاقبتم فعاقبوا**)، والأمر للوجوب والإلزام ؛ لأن العدل واجب، وهو شريعة الله عز وجل، وذلك " باعتبار متعلقه، وهو قوله: (بمثل ما عوقبتم به) ؛ فإن عدم التجاوز في العقوبة واجب "(١). أما في قوله تعالى: (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) فناب عن الشرط جواب القسم، ووقع جملة خبرية (**لهو خير للصابرين**) للترغيب والحث على الانتقال من مرحلة المقاصَّة إلى مرحلة الإحسان، فاختلاف المقامين أدى إلى اختلاف الأسلوبين.

وقد اقترن جواب (إن) الأولى بالفاء إشارة إلى ترتب العقاب على الاعتداء، ويكون ذلك في أعقاب الاعتداء، أما في جملة الشرط الثانية ففيها

---

(١) التحرير والتنوير ١٤ / ٣٣٦

إشارة إلى أن الخيرية تكون مصاحبة للصبر ابتداء، ولا تكون في عقبه مترتبة عليه، وجاء الجواب مؤكدًا بعدة مؤكدات:

- القسم المقدّر.
- اللام الموطئة للقسم (لئن).
- تكرار الجواب مرتين: مرة مذكورًا للقسم، وأخرى محذوفًا للشرط، وتقدير الكلام ـ والله أعلم ـ: والله للصبر خير للصابرين، وإن صبرتم فصبركم خير لكم.
- اللام الواقعة في جواب القسم.
- بناء جملة الجواب على الاسمية.

ولا ريب في أن هذه المؤكدات ترجح كفة الصبر وتجعله مرغوبًا فيه، فهو سمة المؤمنين المحسنين.

المطلب الرابع

أسلوب الحذف

لأسلوب الحذف بلاغته في الكلام، ـ فهو كما قال عبد القاهر ـ " باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر ؛ فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمَّ ما تكون بيانًا إذا لم تُبِنْ "(١).

ومن حذف الحرف ما جاء في قوله تعالى: (ولا تكُ)، فأصل الكلمة (تكن)، فحُذفت النون اختصارًا، وعلَّل النيسابوري (ت: ٧٢٨ هـ) لذلك بأنه مبالغة في النهي عن الحزن، وموافقة لما قبله ﴿وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ النحل: ١٢٠ (٢)، فقد التفت إلى سياق المقطع ومدى تناسب النص مع سياقه، فالسياق اللغوي عنده أولى بالاعتبار. أما البقاعي فقد ولَّى وجهه تجاه السياق المقامي وهو يعلل للحذف بالتناسب مع مقام الضيق وما يناسبه من الاقتضاب والاختصار، فقال: " أوجز في العبارة بحذف حرفٍ مستغنى عنه دلالة عليه... إشارة إلى ضيق الحالة عن أدنى إطالة "(٣).

على أن هناك من يرى في الحذف اتِّباعًا للاستعمال الوارد عند العرب، فحُذفت النون تخفيفًا لكثرة الاستعمال، " ومعنى كثرة الاستعمال أنهم يعبِّرون بـ (كان ويكون) عن كل الأفعال، فيقولون: كان زيد يقول، وكان

---

(١) دلائل الإعجاز (تحقيق : محمود شاكر) / ١٤٦

(٢) ينظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١٤ / ١٣٢

(٣) نظم الدرر ١١ / ٢٨٤

زيد يجلس، فإن وُصلت بساكن رُدَّت النون وتحركت "(١) ، وفي هذا نظرٌ للسياق الثقافي واستعمال معهود العرب في الإيضاح والتفسير.

ومن حذف الكلمة نجد حذف المسند إليه (الفاعل) في مواضع وذكره في غيرها، إذ جاء في النظم الكريم عدد من الأفعال، منها ما أُسند لرسول الله ﷺ والمسلمين ومنها ما أُسند للكافرين، ونلحظ أن الأفعال (**عاقبتم، عاقِبوا، صبرتم، اصبر، تحزن، تك، اتقوا**) أُسندت للرسول ﷺ وأتباعه، وبُنيت للمعلوم لأنهم حضور في الساحة الإلهية، مما يدل على علوِّ مقامهم ومنزلتهم، في حين أن في قوله تعالى: (**عوقبتم**) بُني الفعل لِما لم يُسَمَّ فاعله، أي: عاقبكم به الكفار، فحُذف الفاعل هنا للإشارة إلى أن أثره من الأذى والإيلام ينبغي أن يزول زوال أشخاصهم الفاعلة من النظم الكريم، وجاءت الصيغة هنا للماضي لأن النص يحكي حكاية حال ماضية.

وحين أسند الفعل لفاعله في: (**يمكرون**) كان لبيان أن إسناد المكر إليهم لتحذير المؤمنين منهم في مستقبل الأيام ؛ لأن الغدر شيمتهم، فيجب على المؤمنين أن يأخذوا حذرهم، فإن هؤلاء الكافرين لن يهدأ لهم بال أو يقرَّ لهم قرار إلا بالقضاء على هذا الدين، وصيغة المضارع هنا تصور ما طُبع عليه هؤلاء من الخداع والمكر، وتشير إلى استمرار هذا الوصف فيهم وتجدده على مرِّ الأيام والعصور(٢).

---

(١) روح البيان ٥ / ١٠١

(٢) ينظر : نظم الدرر ١١ / ٢٨٤

أما حذف المفعول فقد ذكر عبد القاهر أنه قد يكون الغرض منه إثبات معنى الفعل لا غير، وذلك كقولهم: " فلان يحلُّ ويعقد، ويأمر وينهى، ويضرُّ وينفع... المعنى في جميع ذلك على إثبات المعنى في نفسه للشيء على الإطلاق وعلى الجملة، من غير أن يتعرض لحديث المفعول "(١)، وهذا ما نجده في قوله تعالى: **(اتقوا)**، فالمراد إثبات هذا الوصف (التقوى) للمسلمين وحثهم على التحلي بها.

والأمر نفسه في قوله تعالى: **(صبرتم / اصبر)**، فإذا كان المعنى السياقي يحدد الصبر بأنه العفو أو ترك المعاقبة، إلا أن حذف المفعول يعطيه بعدًا أوسع ليشمل الصبر بمعناه العام من صبر على الطاعة، وعن المعصية، وعلى أقدار الله عَزَّ وَجَلَّ، حتى يتحقق هذا الوصف للمسلم بإطلاق.

كما نجد حذف المفعول في قوله تعالى: **(عاقبتم / عاقبوا)** لإفادة العموم والشمول، وهنا يظهر ملاءمة السياق لمقاصد الشريعة، فالعدل واجب في العقاب في أي موقف كان ومع أي فرد، سواء في موقف الدعوة والسلم أم في مواقف الجهاد، مع المسلمين أم مع غيرهم ؛ ولهذا حُذف المفعول ليتناول كل ظرف وموقف.

---

(١) دلائل الإعجاز / ١٥٤

خاتمة

خلاصة ونتائج

وعود على بدء.. نشير بإجمال إلى أهم ما جاء في الدراسة:

أوَّلاً: إن المفهوم الاصطلاحي للسياق ـ كما نعرفه اليوم ـ لم يكن غائبًا عن دراسات المتقدمين من السلف، فالمعاني التي ذكروها له تشير إلى أنواعه الرئيسة: اللغوي، والمقامي، وسياق المقصد. وقد أشاروا إلى هذا المفهوم من خلال عدد من المصطلحات كالمقام، والموقف، والحال، والنظم، والتأليف وغيرها.

ومع أن بعض الباحثين المحدثين يشير إلى أن مصطلح (السياق) عصيٌّ على التعريف، فإن التعاريف التي وُضعت له حديثًا تتفق مع مفهومه في التراث الإسلامي وتشير إلى أنواعه الرئيسة التي ألمحنا إليها آنفًا.

ثانيًا: إن أنواع السياق التي تم درسها هي: السياق اللغوي، والمقامي، والثقافي، وسياق المقصد، فضلاً عن السياق الكلي للخطاب القرآني. وقد اتضح أثر هذه السياقات في آيات الدراسة، في معانيها ومبانيها الإفرادية والتركيبية.

ثالثًا: اعتماد بعض المفسرين على السياق المقامي في تفسير معاني الآيات بالإشارة إلى سبب نزولها، وهذا السياق يعطي إضاءة كاشفة للنص، ويمثل صورة حيَّة لظرف الحدث وملابساته، مما يجعل المتلقي يتفاعل بإيجابية مع النص. وقد بينت الدراسة مدى انسجام الآيات مع المقام، وملاءمتها لأحوال المخاطبين آنذاك، بما فيها من إثارة للرضى والسكينة في النفوس.

كما اتجه فريق آخر من المفسرين إلى تفسير الآيات الكريمات في إطار سياق المقصد، والذي اتضح من خلاله حكمة التشريع الإسلامي وشموله، فقد رسمت الآيات منهج تعامل المسلمين بعضهم مع بعض، أو مع أعدائهم ومخالفيهم، في مجالات الحياة كافة، في مجال الدعوة والسلم أو الجهاد والحرب. وقد برز دور السياقين اللغوي والمقامي في الترجيح لهذا النوع من السياق.

رابعًا: ظهور أثر السياق في الترجيح بين المفردات القرآنية وتخير الدلالة الملائمة للمعنى، فكان السياق اللغوي هو الغالب من خلال الدلالة المعجمية للألفاظ في معظم مفردات الدراسة، أو المستوى الصرفي الذي أسهم في إثراء معنى المفردة على نحو ما نجد في (ضيق)، وللسياق الثقافي أثره في الدلالة كما في مفردة (العقاب)، كما ظهر سياق المقصد في مفردة (الصبر)، وهو من الخصال الحميدة التي يربي الإسلام أتباعه عليها. أما السياق الكلي للخطاب القرآني فقد تجلى من خلاله سمات البلاغة القرآنية المعجزة في استخدام الألفاظ في سياقات معينة على نسق معين.وقد تضافرت تلك السياقات جميعًا في إعطاء المعنى الدلالي للنص.

خامسًا: ظهور أثر السياق في البناء التركيبي للآيات الكريمات، فهناك انسجام وتناغم، ووحدة وترابط، فالسياق المقامي وما فيه من أحداث مؤلمة اقتضى استخدام أساليب قوية تلقي السكينة والطمأنينة في النفوس الثائرة، فجاء التوكيد بمختلف صوره كالقسم والقصر والجملة الاسمية وحرف

التوكيد ليسهم في إحداث السكينة والرضى بقضاء الله تعالى، كما اقتضى استخدام الحذف لضيق المقام عن الإطالة.

أما سياق المقصد فقد استدعى الإتيان بأسلوب الإنشاء الذي يتناسب مع مقام التربية والتوجيه، كما ناسبه ـ أيضًا ـ استعمال أسلوب الشرط الذي يبين للمسلمين ما الذي ينبغي فعله في كل موقف، كما أن أسلوب الحذف مما يتناسب مع عموم الشريعة وشمولها.

وفي ضوء هذه النتائج فإن الدراسة توصي بدراسة السياق بمختلف أنواعه من الوجهة البلاغية لاستجلاء جوانب البلاغة المعجزة في القرآن والكشف عن أثره الفاعل في النفوس والعقول جميعًا دون حيف من أحدهما على الآخر، وقدرته على خطاب الناس كافة، العامة والخاصة، والذكي ومحدود الذكاء بخطاب واحد لا يتفاوت في درجة البلاغة، ويحقق الرسالة السامية التي يدعو إليها من الهدى والرشاد وإصلاح البلاد والعباد وفق شريعة الله الخالدة.

هذا والله أعلم.. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم.

ـ أساس البلاغة، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عبد الرحيم محمود (دار المعرفة، بيروت، د. ط، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م).

ـ أصول التفسير، تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية، تحقيق: فريال علوان (دار الفكر اللبناني، بيروت، ط ١، ١٩٩٢ م).

ـ الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، إبراهيم بن محمد عربشاه عصام الدين الحنفي، حققه وعلق عليه: عبد الحميد هنداوي (دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١ م).

ـ إعراب القرآن، أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس، تحقيق: زهير غازي زاهد (مطبعة العاني، بغداد، د. ط. ت).

ـ أهمية اعتبار السياق في المجالات التشريعية وصلته بسلامة العمل بالأحكام، أعمال الندوة العلمية الدولية التي نظمتها الرابطة المحمدية للعلماء، جمادى الثانية ١٤٢٨ هـ / يونيو ٢٠٠٧ م (ط ١، ٢٠٠٧ م).

ـ الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن المعروف بالخطيب القزويني، شرح وتعليق وتنقيح: محمد عبد المنعم خفاجي (دار الجيل، بيروت، ط ٣، د. ت).

ـ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، ج ٣، تحقيق: محمد علي النجار (المكتبة العلمية، بيروت، د. ط، د. ت).

ـ التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، تحقيق: علي محمد البجاوي(دار إحياء الكتب العربية، د. ط، د. ت).

- تفسير العلامة أبي السعود إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود محمد بن محمد العمادي (دار الفكر، بيروت، د. ط، د. ت).
- تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، إعداد وتحقيق: خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار (دار المعرفة، بيروت، ط ٤، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م).
- تفسير البيضاوي على حاشية الشهاب الخفاجي = انظر: حاشية الشهاب الخفاجي.
- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور (الدار التونسية للنشر، تونس، د. ط، ١٩٨٤ م).
- تفسير روح البيان، إسماعيل حقي البروسوي (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٢، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م).
- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (دار الأندلس، د. ن، د. ت).
- التفسير الكبير المسمى البحر المحيط، أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف، (مؤسسة التاريخ العربي ودار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٢، ١٤١١ هـ، ١٩٩٩٠ م).
- التفسير الكبير، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، د. ت).
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، اعتنى به تحقيقًا ومقابلة: عبد الرحمن بن معلا اللويحق (مكتبة العبيكان، الرياض، ط ٣، ١٤٢٧ هـ/ ٢٠٠٦ م).
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطار (دار الفكر، بيروت، ١٤٢٥ / ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥ م).

- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ط، د. ت).
- حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، شهاب الدين محمد بن أحمد الخفاجي (دار صادر، بيروت، د.ط، د. ت)
- حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي، محيي الدين محمد بن مصطفى شيخ زاده (دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ط، د. ت).
- الحجة في القراءات السبع، أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه، تحقيق وشرح: عبد العال سالم مكرم (دار الشروق، بيروت والقاهرة، ط ٣، ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩م).
- الحجة للقراء السبعة أئمة الأمصار بالحجاز والعراق والشام الذين ذكرهم أبو بكر بن مجاهد، أبو علي الحسن بن أحمد الفارسي، وضع حواشيه وعلق عليه: كامل مصطفى الهنداوي (دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠١ م).
- الخطاب القرآني: دراسة في العلاقة بين النص والسياق، خلود العموش (عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ط ١، ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥ م).
- خطة السياق ومحاولة تطبيقها على النص الحديثي، محمد خروبات = انظر: أهمية اعتبار السياق
- دراسات في علم البديع، محمد أحمد علي (مطبعة الأمانة، مصر، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦م).
- دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود أحمد شاكر (مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٥، ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٤ م).
- دلائل الإعجاز، طبعة دار المعرفة.
- دلالة السياق، ردة الله بن ردة الطلحي (جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية، مكة المكرمة، ط ١، ١٤٢٤ هـ).

- دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث: دراسة تحليلية للوظائف الصوتية والبنيوية والتركيبية في ضوء نظرية السياق، عبد الفتاح عبد العليم البركاوي (دار المنار، القاهرة، ط ١، ١٤١١ هـ/ ١٩٩١ م).
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي (دار الفكر، بيروت، د. ط، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م).
- السياق بين علماء الشريعة والمدارس اللغوية الحديثة، إبراهيم أصبان = انظر: أهمية اعتبار السياق.
- السياق وتوجيه دلالة النص، عيد بلبع (بلنسية للنشر والتوزيع، ط ١، ١٤٢٩ هـ/ ٢٠٠٨ م).
- السياق وفهم النص الشرعي، مولاي الحسين ألحيان = انظر: أهمية اعتبار السياق.
- السيرة النبوية، أبو محمد عبد الملك بن هشام (دار الفكر، القاهرة، د. ط، د. ت).
- شروح التلخيص، مجموعة من المؤلفين (دار الكتب العلمية، بيروت، د. ط، د. ت).
- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، أحمد بن يوسف المعرف بالسمين الحلبي، تحقيق: محمد التونجي (عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٣ م).
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري، تحقيق ومراجعة: إبراهيم عطوة عوض (مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، د. ط، ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤ م).
- الفروق، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، قدم له وضبطه وعلق حواشيه وفهرسه: أحمد سليم الحمصي (جروس برس، ط ١، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٤).
- في ظلال القرآن سيد قطب (دار الشروق، بيروت والقاهرة، ط ١٧، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢ م).

- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي (مؤسسة الرسالة، د. ب، ط ٣، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣ م).

- القراءة السياقية عند الأصوليين، يحيى رمضان = انظر: أهمية اعتبار السياق

- القواعد الحسان لتفسير القرآن، عبد الرحمن بن ناصر السعدي (مكتبة المعارف، الرياض، د. ط، ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢).

- كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جزي الكلبي (دار الفكر، د. ب، د. ط، د. ت).

- كتاب المجالس، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب، تحقيق: غانم قدوري الحمد (دار عمار، عمَّان ـ الأردن، ط ١، ١٤٢ هـ/ ٢٠٠٢ م).

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله محمود بن عمر الزمخشري (دار الفكر، د. ب، د.ط، د. ت).

- الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢ م).

- لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (دار إحياء العلوم، بيروت، ط ٣، ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠م).

- اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان (عالم الكتب، القاهرة، ط ٣، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٨ م).

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد (دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣ م).

- المطول في شرح تلخيص المفتاح، سعد مسعود بن عمر التفتازاني، وبهامشه: حاشية المير سيد شريف (المكتبة الأزهرية للتراث، مط أحمد كامل، ١٣٣٠ هـ).

- معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار (عالم الكتب، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠ م).

- معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، شرح وتحقيق: عبد الجليل عبده شلبي (عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م).

- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، اعتنى به أحمد عوض مرعب وفاطمة أصلان (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠١ م).

- المعنى بين اللفظ والقصد. في الوظائف المنهجية للسياق، حميد الوافي = انظر: أهمية اعتبار السياق.

- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني (دار المعرفة، بيروت، د. ط، د. ت).

- مقاصد الشريعة الإسلامية تأصيلاً وتفعيلاً، محمد بكر إسماعيل حبيب (دار طيبة الخضراء، مكة المكرمة، ط ٢، د. ت).

- المنتخب من غريب كلام العرب، أبو الحسن علي بن حسن الهُنائي المعروف بكُراع النَّمْل، تحقيق: محمد بن أحمد العمري (جامعة أم القرى، ط ١، ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٩م).

- الموافقات في أصول الشريعة ،أبو إسحاق إبراهيم بن موسى المعروف بالشاطبي، تحقيق: محمد عبد القادر الفاضلي (المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، د. ط، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م).

- نظم الدُّرَر في تناسب الآيات والسُّوَر، أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١، ١٣٩١ هـ/ ١٩٧٢ م ٩.

ـ النُّكت في إعجاز القرآن، أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، ضمن كتاب (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، حققها وعلق عليها: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام (دار المعارف، القاهرة، ط ٤، د. ت).